

يعلم معظم الناس أن الشرك إثم عظيم، ولكنهم لا يعتقدون بتاتاً أن له أية علاقة بهم. فهم يظنون أنّ المشركين، الموصوفون بأنهم يجعلون لله الشركاء، هم فقط أشخاصاً يعبدون الأصنام المنحوتة من الصخر والخشب، كما كان يفعل العرب الأوائل قبل الإسلام، الذين كانوا يعبدون الأصنام في الكعبة. غير أن الشرك في الواقع قد يكون أخفى بكثير من ذلك، وهو في الحقيقة منتشر اليوم بكثرة في العديد من المجتمعات.

يشمل الشرك كل هدف يضعه الإنسان لا يقصد به وجه الله تعالى، أو أن يضع رجاءه في شخص ما أو سبب من الأسباب معتمداً على هذه الجهات في سبيل تحقيق آماله ورغباته، وهو مؤمن بأن هذه الأشخاص أو الجهات تملك القوّة والقدرة المستقلّة عن الله تعالى. فمتى فهمنا حقيقة الشرك والطريقة التي يتخفى بها، فإن علينا أن ننظر إليه كظاهرة قريبة جداً منا. إن الشرك بالله أعظم إثم على الإطلاق. فهو إثم لا يغتفر وبالتالي يقود صاحبه إلى جهنم. فإذاً، على من يخشى الله ويعترف بربوبيته ويطمع بجنّته أن يظل متيقظاً حيال هذا الأمر الخطير. غير أن الناس ليس باستطاعتهم تجنّب هذا الإثم العظيم ما لم يعلموا تماماً ماهية الشرك وما هي الأمور التي تنضوي تحته وتؤدي إليه.

لقد ألف هذا الكتاب بهدف إظهار أن الشرك المذكور في القرآن منتشر بكثرة في مجتمعنا المعاصر. فنأمل أن يحقق هدفه المنشود وأن يعين الناس على التبرأ من أوثانهم والعودة إلى الله تعالى وحده بكل إخلاص، خالق كل شيء.

الشرك : الإفك الأعظم

{إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا
{ (النساء: ٤٨)}

محتويات الكتاب

المقدمة

ما هو الشرك

أنواع المشركين في القرآن
الذين يجعلون لله الأنداد بإسم الدين
صفات المشركين
أسباب الشرك الرئيسية
العاطفة: خطر يمكن أن يؤدي إلى الشرك
الشرك الخفي
كسر الأصنام

المقدمة

يعلم معظم الناس أن الشرك إثم عظيم، ولكنهم لا يعتقدون بتبتاً أن له أية علاقة بهم. فهم يظنون أنّ المشركين، الموصوفون بأنهم يجعلون لله الشركاء، هم فقط أشخاصاً يعبدون الأصنام المنحوتة من الصخر والخشب، كما كان يفعل العرب الأوائل قبل الإسلام، الذين كانوا يعبدون الأصنام في الكعبة. غير أن الشرك في الواقع قد يكون أخفى بكثير من ذلك، وهو في الحقيقة منتشر اليوم بكثرة في العديد من المجتمعات.

يشمل الشرك كل هدف يضعه الإنسان لا يقصد به وجه الله تعالى، أو أن يضع رجاءه في شخص ما أو سبب من الأسباب معتمداً على هذه الجهات في تحقيق آماله ورغباته، وهو مؤمن بأن هذه الأشخاص أو الجهات تملك القوّة والقدرة المستقلة عن الله. فمتى فهمنا حقيقة الشرك والطريقة التي يتخفى بها، فإن علينا أن ننظر إليه كظاهرة قريبة جداً منا. إن الشرك بالله أعظم إثم على الإطلاق. فهو إثم لا يغتفر وبالتالي يقود صاحبه إلى جهنم. فإذاً، على من يخشى الله ويعترف بربوبيته ويطمع بجنته أن يظل متيقظاً حيال هذا الأمر الخطير. غير أن الناس ليس باستطاعتهم تجنب هذا الإثم العظيم ما لم يعلموا تماماً ماهية الشرك وما هي الأمور التي تنضوي تحته وتؤدي إليه.

لقد ألف هذا الكتاب بهدف إظهار أن الشرك المذكور في القرآن منتشر بكثرة في مجتمعنا المعاصر. فنأمل أن يحقق هدفه المنشود وأن يساعد الناس بالتبرأ من أوثانهم والعودة إلى الله تعالى وحده بكل إخلاص، خالق كل شيء.

بالإضافة إلى ذلك، فإن الشرك على رأس قائمة الآثام التي يجب إجتناؤها، لأن الذين يجعلون مع الله شركاء مذنبون بإرتكابهم إثم كبير بحقه. وقد ذكر الله في القرآن الكريم انه تعالى يغفر الذنوب كلها إلا أن يشرك به. فالشرك ذنب كبير وافتراء عظيم:

{إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا} (النساء: ١١٦)

هنا تكمن أهمية إجتنااب الشرك. فبما أن الله لا يغفر هذا الذنب العظيم، فإنه يدعو الناس إلى إجتناابه بكل الوسائل والأثمان وذلك بالإمتناع عن الشرك به تعالى. فمثلاً، فإن النبي لقمان (ع) كان يقول لإبنه وهو يعظه:

{وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشُّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} (لقمان: ١٣)

سبب آخر لإجتنااب الشرك هو أنه يذهب بكل أعمال الإنسان هباءً ويجعلها حسرات عليه بسبب ضلال سعيه:

{وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} (الزمر: ٦٥)

من الواضح أن الشرك بالله ذنب خطير يؤدي بالإنسان إلى جهنم. فإذا، على من يخشى الله ويعترف بربوبيته ويطمع بجنته أن يظل متيقظاً حيال هذا الأمر الخطير. غير أن الناس ليس باستطاعتهم تجنب هذا الإثم العظيم ما لم يعلموا تماماً ماهية الشرك وما هي الأمور التي تنضوي تحته وتؤدي إليه.

لقد ألف هذا الكتاب بهدف إظهار أن الشرك المذكور في القرآن منتشر بكثرة في مجتمعنا المعاصر. فنأمل أن يحقق هدفه المنشود وأن يعين الناس على التبرأ من أوثانهم والعودة إلى الله تعالى وحده بكل إخلاص، خالق كل شيء.

على القارئ أن يدرك أيضاً أن الشرك ليس مقتصرأً على الأزمنة الغابرة أو المجتمعات البدائية، بل هو أقرب إليهم ممّا يظنون. ولهذا، فإنه يجب أن يشكل إهتماماً كبيراً بالنسبة إليهم. إن

الذين يشعرون بعدم حاجتهم للتفكير في هذا الأمر لن يتمكنوا من الإستفادة من المعلومات المذكورة في هذا الكتاب. بمعنى آخر، إذا كان هؤلاء يمارسون الشرك فإنهم سيبقون على هذه الحال وسيلقون الله تعالى بهذا الذنب العظيم.

فإذاً، عليك بقراءة هذا الكتاب بتمعن وإخلاص وكأنه كتب خصيصاً لك. تفكر فيه يصدق وتأمل بالأمثلة القرآنية، ثم قرر ما إذا كانت معتقداتك وأعمالك تمت إلى الشرك بأية صلة. بما أننا جميعاً ضعفاء وقابلين للوقوع في الخطأ، فإن ما يهم هو معرفة أخطائنا وتصحيحها فوراً.

ما هو الشرك؟

إن كلمة شرك في اللغة العربية من الشراكة. وهي أن يُجعل لله تعالى شركاء. عندما يُذكر الشرك في القرآن فهو يُذكر في المعنى التالي: إعطاء أهمية كبرى وألوية لأي شيء، شخص، أو مفهوم، وإعتبره مساوياً أو حتى متفوقاً على الله تعالى، ومن ثم التصرف والعمل وفق هذا المفهوم المشوه والخاطيء. وهذا يعني أن صاحب هذا المعتقد يعطي صفى الألوهية لخلق الله علماً بأن الله تعالى هو وحده الإله.

إن رسالة القرآن الأساسية هي أن لا إله إلا الله. هذه الحقيقة تتمثل في الشهادة وهي تتكرر باستمرار في القرآن الكريم. ومع ذلك، فيجب على المسلمين أن يفهموا هذه الحقيقة تماماً ويتأملوا فيها بعمق. فإذا أقررنا أن القوة كلها والقدرة لله، وأن لا إله إلا هو تعالى، فهذا لا يُمكن أن يفسر ويفهم بطريقة سطحية. ومتى نظرنا إلى القرآن أدركنا أن أي معتقد، موقف أو تصرف آخر لا يرتكز على هذه الحقيقة هو شرك في الواقع. وهكذا، فإننا نستطيع أن ننظر إلى الشرك في معناه العام على أنه أي مفهوم خاطيء يقوم على أن أي شخص، شيء، أو إله يملك القوة والقدرة غير الله تعالى. وفقاً للقرآن، فإن الإله هو كينونة تملك الصفات والقدرات التي إنفرد بها الله. فيما أنه ليس هنالك من مخلوق يملك هذه الصفات والقدرات، فإذا لا يوجد إله غيره تعالى. والقول بغير ذلك يعني أن هنالك آلهة أخرى تُعبد ويعني أيضاً جعل الشرك بالله.

هنا، علينا أن نقوم بتمييز مهم. فمثلاً، الغني الذي هو إسماً من أسماء الله تعالى، يطلق أيضاً على الشخص الغني مادياً. إلا أن ما يؤدي إلى الشرك هو الإعتقاد بأن غنى هذا الشخص قد حصل بسبب مجهوده الشخصي. ففي هذا الحال، فستنسى الحقيقة التي تنص على أن الغنى كله في الواقع لله. والإعتقاد الصحيح هنا أنه لحكمةٍ ما، أراد الله أن يعطي هذا الشخص كل ما يملك، ويعطيه بذلك صفة الغني. غير أن الناس تنسى، أو تتجاهل واقع أن الله قد ينزع ما يشاء ممن يشاء

متى يشاء. إن عدم القدرة على إدراك أن أي شخص هو في الواقع فقير وضعيف يجعل الناس غير قادرين على فهم حقيقة أن الله تعالى قد يظهر صفاته في أي شخص يختاره، وكنتيجة لذلك، قد يعتبر الناس أن هذا الشخص هو المالك الحقيقي لهذه الأشياء والممتلكات والثروات والصفات. ولكن بما أن جميع هذه الأشياء موهوبة من الله، وليست محصلة بسبب المجهود الفردي لهذا الإنسان، فإن هذا الفهم الخاطيء قد يتسبب للناس بنسيان ربهم والغفلة عنه وإعطاء صفة الألوهية لغيره. ومتى حصل ذلك من الإنسان فقد وقع في الشرك.

فيجب إذًا علينا أن نتيقن أن الله هو المالك الحقيقي لكل الثروات، بغض النظر عن مكانها وأعدادها، وأنه قادر على نزعها من أي شخص وفي أي وقت. حين نقيم شخص غني ما، فإن ما يهم ليس وضعه المادي، بل علينا أن ننظر إليه على أنه مجرد عبد لله تعالى. فمثلًا، إن كان فرد في عائلة ما ينظر إلى الأب على أنه المالك الحقيقي لثروته، فهو مرتكبًا لإثم عظيم. وكمثل آخر، فإن على من يعمل في مجال ما التيقن بأن الله هو وحده الذي يطعمه، يكسوه، ويأويه. فليس من المنطق النظر إلى مستخدمه على أنه هو الرازق.

{إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} (العنكبوت: ١٧)

إضافة إلى ذلك، يبيّن لنا القرآن أن لا قوّة إلا بالله (الكهف ٣٩) فكل ما يشبه القوّة في مخلوقاته ليس إلا إنعكاساً لقوته تعالى، وهو القادر على نزع هذه الصفات في أي وقت. إن المبالغة في تقدير أي إنسان بسبب صفات أمده الله بها كإختبار له في هذه الدنيا، والإعجاب الشديد به كما لو أن هذه الصفات كانت متأصلة فيه، هو في الواقع وضع هذا الإنسان في مرتبة الألوهية.

{مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} (الحج: ٧٤)

والمنطق نفسه ينطبق على صفات الله الأخرى التي يمد بها أو يعكسها في عباده وخلقها. فعلىنا أن ندرك أن هذه الصفات لله تعالى وحده وما نراه في خلقه ليس إلا إنعكاسات لهذه الصفات.

بداية الشرك

إن الخطأ العظيم الذي يتمثل في إعطاء ذاتية مستقلة لمخلوقات الله وإعتبار وجودهم قائم بذاته ومستقل عن الله يؤدي إلى الشرك. فالله يعطي الثروات، الجمال، القوة والمجد ولكن الإنسان الذي يُعطى هذه الصفات لا يملكها حقاً وليس هو الذي أوجدها، ولا هو ولا ما يملك موجود بشكل مستقل عن الله. إن من لا يدرك هذه الحقيقة غالباً ما يُظهر الإعجاب أو الخوف من هؤلاء الذين أعطاهم الله هذه الصفات، معتقداً بأنهم بطريقة ما مستقلون عن الله. ومن هنا يبدأ الشرك.

كما سنرى في الفصول التالية، فإن هذا المعتقد الذي يتمثل في نسب القدرة والصفات إلى المخلوقات هو الأساس لكل أشكال الشرك والوثنية. على المؤمنين الحقيقيين أن يأسسوا إيمانهم على التوحيد، وأن يجتنبوا الشرك بالله تعالى. على الناس أن يتذكروا دائماً أنهم مدينون لله بكل ما يملكون وأنهم خلُقوا بإرادة الله وحده. هو الذي يحييهم ويميتهم، فهو يفعل ما يشاء، يرزق من يشاء من عباده بما يشاء من الصفات.

القوة، الذكاء، الجمال، الشهرة، والمراكز العليا هي منح ونعم من خلق الله. وبما أنه هو تعالى خالقها، فهو ينزعها متى يشاء. إن الله يظهر قدراته في أشكال مختلفة، في كل المواضع وفي كل العباد. وهذه التجليات هي التي نراها حيثما نظرنا. يجب على المؤمنين بالله تعالى أن يرسخوا في قلوبهم حقيقة أن لا شيء موجود مستقل عن الله. فقط عندما يبنوا إيمانهم، تأملهم، وتصرفهم على هذه الحقيقة سينتهوا من الشرك بالله تعالى.

التبريرات الباطلة للمشركين

يمكننا تعلم المعاني الصحيحة للشرك، التوحيد، والعبادة من القرآن الكريم. فقط عندما نقرأ القرآن ونفقه معانيه ونسعى لتحقيق هذه المعاني في حياتنا يصبح لدينا الفهم، الإيمان، والتصرف الصحيح جاعلين الله إلهنا في جميع الأمور ومجتنبين خطأ الشرك به تعالى. فإذاً، على من يؤمن بالقرآن ويوقن أنه الحق أن لا يتبنى أي مقياس أو مرجع آخر عندما يتعلق الأمر بالإيمان، التفكير، الفهم الأخلاقي، طريقة العيش، وأحكام مهمة أخرى. فإن محاولة الإنسان لتبرير تفضيله للبدائل عن أوامر الله ناسياً بذلك الحدود التي وضعها تعالى قد تؤدي به إلى الشرك.

هكذا تبرير لا يصح أبداً. فمثلاً، تفضيل نيل إستحسان شخص ما والسعي إلى إرضائه عوضاً عن إرضاء الله يعني إتخاذ إله آخر. الخوف من شخص ما أكثر من الله وتوقيره بنفس الدرجة التي يُوقر بها الله أو حتى أكثر، مما يؤدي إلى ترك نواهيهِ والتصرف بما لا يرضيه يشكل أيضاً نوعاً من أنواع الشرك. أن يحب الإنسان شخص ما كحبه لله أو أكثر، ذلك أيضاً في خانة الشرك. إذا أشار

شخص مدرك لأهمية العيش ضمن نطاق الشريعة والإيمان إلى المجتمع المحيط به، كتبرير لممارساته وإعتقاداته الخاطئة، وحتى لا يتسبب لنفسه بالنقد، فهذا دليل واضح على الشرك. فعلى الإنسان أن يُدرك من هو الأولي بأن يُرضيه. إن عائلة شخص ما أو أقربائه قد لا يفقهون الإسلام، وفي هذه الحال، فإن أي إنحراف عن متطلبات هذا الدين وتقديم التنازلات لإرضائهم يقع في نفس الخانة. ليس من مسلم يقوم بتقديم التنازلات على حساب رضوان الله. فرضوانه تعالى هو فقط ما يهم. بالتأكيد ما من أحد قد يود أن يقلل من حبه وإحترامه لعائلته. ولكن بحال أراد أفراد هذه العائلة منه أن يشرك بالله فإن الله يقول في ذلك:

{وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} (العنكبوت: ٨)

أن أفضل مثال للتعامل مع غير المسلمين هو الرسول (ص). فعندما كان الرسول يبلغ الرسالة التي جاء بها أدرك الكثيرون بأن هذا هو الحق الذي يجب إتباعه، ولكن القليل منهم طبّقوا فعلياً أحكام الدين واتبعوا الرسول. فمثلاً، بُعيد هجرة الرسول (ص)، أنزلت الآيات التي تناول لباس المرأة الشرعي :

عن صفية بنت شعبة : كنا مع عائشة (ر) فذكرنا نسوة قريش وفضائلهم. فقالت عائشة (ر): إن نسوة قريش فيهن الخير، ولكني والله لم أر مثل نسوة الأنصار. فعندما أنزلت الآية: {...وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ...} ذهب إليهم رجالهم يتلون عليهم هذه الآية، كل رجل يتلوها على زوجته، إبنته، أخته أو أقرباءه ، نهضت كل امرأة، فأخذت بإزرها وإختمت به إيماناً بما أنزل الله تعالى.(تفسير ابن كثير، سورة النور).

أثناء بعثة الرسول(ص)، كانت النساء المؤمنات سريعات الإمتثال لإوامر الله، وكانت طاعتهم نابعة عن شوق ورغبة. وكذلك فعلت المؤمنات التي أتين من بعدهن، بطاعتهم للفرائض بكل رغبة وتصميم.

أما البعض الآخر، فقد خشي ردة فعل المجتمعات التي يعيش فيها، فخضع لتهديداتها، وخاف من فقدان موقعه ومنزلته، وحسب أنه سيخسر الكثير في حال إستجاب للرسول (ص) ووقف مع المسلمين للجهاد في سبيل الدين. وبسبب صعوبة الأحوال في هذا المحيط، فقد خاف البعض

مما قد يصيبهم، واعتبر البعض الآخر إن الجهاد مع الرسول (ص) في حر الصحراء عمل شاق واستحبوا شهواتهم الدنيا.

وكخلاصة، فقد حاول هؤلاء الإتيان بكل أنواع التبريرات والذرائع للتهرب من متطلبات الإيمان. ولكن وفقاً للقرآن الكريم نستطيع أن ندرك أنهم بعملهم هذا كانوا يجعلون لله الأنداد ويشركون به. فمع أنهم عرفوا الحق في إنفسهم إلا أنهم فضلوا أشخاصاً آخرين، أو حتى مجتمع بأكمله، أو مال، أو منزلة إجتماعية، أو شهواتهم على رضوان الله تعالى. فهم سعوا لإرضاء غير الله، وأملاوا بالخلاص بالإستعانة بوسائل غيره تعالى. فخاف أكثرهم من نقد المجتمع لهم، وترددوا في وجه التهديدات، وخافوا على مناصبهم، ورأوا إن إتباع الرسول سيؤثر على مصالحهم، وأنهم سوف يخسرون الكثير في حال إسلامهم، وفضل البعض الآخر الراحة والرفاهية على الهجرة إلى المدينة مع النبي (ص). لقد قام الكثير من هؤلاء بالتنازلات بسبب شهواتهم الدنيا أو إشباعاً لرغباتهم، أو تهرباً من أية تضحيات:

{وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا} (الأحزاب: ١٣)

كما رأينا، فقد جاء هؤلاء بمختلف الأعذار لكي لا يرافقوا النبي (ص) والمؤمنين، ولكي لا يجعلوا للإسلام حيزاً في قلوبهم. وربما حاولوا تبرير مواقفهم للآخرين وإقناعهم بمنطقهم، ولكن هذه الأعذار باطلة عند الله تعالى وما كانوا يخدعون إلا أنفسهم. فإتباعهم لشهواتهم وتفضيلها على رضوان الله، فقد كانوا يفعلهم هذا يجعلون الأنداد لله تعالى. إن الذين كانوا على عهد الرسول (ص) إمتحنوا وفق هذا الزمان. والناس اليوم أيضاً يُمتحنون بنفس الطريقة. فالله وحده يعلم مدى صدقهم حين يختارون بين رغباتهم الخاصة ورضوانه تعالى، ويعلم أيضاً حين يتذرعون كما فعل الذين من قبلهم. وكل شخص سيثاب في الآخرة بما يتلائم مع أعماله في هذه الدنيا:

{فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ} (الروم: ٥٧)

فإذاً على الناس اليوم أن لا يهجروا القرآن الكريم وأن لا يختلقوا الأعذار لينصرفوا عن الإسلام .

أساساً، إن من يشرك بالله فقد إتخذ كمشرع شخص أو أي شيء آخر غير الله تعالى. هذا الند المساوي لله قد يكون هو نفسه، أفراد عائلته أو أسلافه، أصدقاءه، مستخدميه، مجتمعه، أو مؤسسي وأتباع مختلف الأديان والفلسفات. فإذا نظرنا إلى الأمر من هذه الناحية، فإن من يتتبعي غير سبيل الإسلام، فقد إختار سواء عن علم أم لا، الشرك. بغض النظر عن ما يدعون أنفسهم (ملحدين، غنوصيين، نصارى، يهود، أو مسلمين)، فهم مشركون. حتى ولو كانوا يقيمون الصلوات الخمس، يصومون، ويؤدون الحج وطقوس إسلامية أخرى، مسيبقون على شركهم في حال كانت واحدة فقط من معتقداتهم تتعارض مع القرآن، في حال تركوا أوامر الله، أو سعوا إلى إرضاء غيره على حسابه تعالى.

أن من يشرك بالله قد لا يعلم أو يشعر بذلك وهو لن يقول " لقد جعلت من هذا أو ذلك إلهاً أعبده من دون الله "، فالشرك أولاً في القلب ثم ينعكس على الأعمال. وكما يوضح لنا القرآن فإن تفضيل الناس لأي أحد أو شيء على الله يجعل من الشخص مشرك. غير أن هؤلاء عادة لا ينكرون وجود الله وهم لا يُقرون بشركهم. وبطمسهم ضمائرهم وخداع أنفسهم، فسينكرون شركهم حتى في الآخرة:

{وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَائُكُمْ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢) ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤)} (الأنعام: ٢٢-٢٤)

أنواع المشركين في القرآن

يطلق القرآن صفة " أهل الكتاب " على اليهود والنصارى. بعض هؤلاء قد إبتعد عن جوهر الدين الصحيح، وباتوا يتبنون نظرة شرك إلى الألوهية. غير أنه لا يجب أن نطلق هذا التعميم عليهم كلهم، لأن بعضهم لم يقع في هذا الخطأ. إن النصارى خاصة قد ضلوا عن سواء السبيل بتأليهم النبي عيسى (ع). فحتى في يومنا هذا، فإن المشركين الذين يعتبرون أنفسهم نصارى يعتبرون أن عيسى (ع) هو إبن الله (تعالى الله عما يصفون)، ويجعلونه إلهاً من دون الله تعالى:

{لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ

أنصار(٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) { (المائدة:٧٣-٧٢)

بعض أحرار اليهود ورهبانهم يشركون أيضاً بالله. وبعض الحاخامات قد إتخذ منهم أرباباً من دون الله وحولوا أوامرهم إلى تشريعات إلهية. بإدخال هذه التشريعات والقوانين إلى التوراة، ففد إلتزم بها أكثرية اليهود لقرون عديدة بإسم الدين. بإعطاء حق التشريع إلى الأحرار والحاخامات، وحق التحريف لأوامر الله، فقد ساوى اليهود بين رجال دينهم والله تعالى. والحال ذاته ينطبق على النصارى الذين إتبع أكثرهم عن غير علم ولا تبصر القديسين والرهبان ورجال الدين الذين كانوا مسيطرين تماماً عليهم. فقد تبنى الناس فهم هؤلاء للدين ووجهات نظرهم عوضاً عن دين الله. إن الأشخاص من الجانبين اليهودي والنصراني قد حرفوا التوراة والإنجيل خلال القرون الماضية بإضافتهم إلى النصوص، إقتطاعهم منها، أو القيام بتغييرات فيها. بإبتعادهم عن الدين الصحيح الذي أنزل في هذه الكتب، فقد تحول أكثرهم إلى الشرك.

{اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} (التوبة: ٣١)

إن الله يدعو الذين تحولوا إلى الشرك للعودة إلى الدين الصحيح، أي إلى الإيمان به تعالى كإلهم الوحيد، دون إتباع أو عبادة غيره:

{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} (آل عمران:٦٤)

علينا أن لا ننسى أننا هنا في صدد الكلام فقط عن المشركين من اليهود والنصارى. بالتأكيد، فإن هنالك مشركين من كل الأديان، حتى بين المجتمعات المسلمة. وأيضاً، فليس كل اليهود والنصارى في نفس الخانة. وإنطلاقاً من هنا، فإننا نسأل الله الرحمة والمغفرة لهؤلاء اليهود والنصارى

الصادقين والذين يؤمنون بالله تعالى كإلههم الوحيد ولا يُشركون به أحد. ويذكر القرآن هؤلاء في الآيات التالية:

{لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣)
يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ
الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥) } (آل عمران: ١١٥-
١١٣)

{وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ
بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ {
(آل عمران: ١٩٩)

يخبرنا القرآن الكريم أن المشركين من أهل الكتاب يجب أن يُدعوا إلى الدين الحق بالموعظة
الحسنة ومع محاولة إظهار خطأ الشرك لهم:

{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا
وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ {
(آل عمران: ٦٤)

تأليه الأقوياء

و أوضح مثل لذلك هم قوم فرعون. بما أن قومه جعلوه في منزلة الألوهية، فإن النظام الذي
أنشأه فرعون وقومه هو مثل عالمي لنظام الشرك الذي نراه في كل الأزمان والمجتمعات. ففرعون
إدعى الألوهية وأطاعه قومه في ذلك:

{فَحَسَرَ فَتَادَى (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (٢٤) } (سورة النازعات: ٢٤-٢٣)

إن أتباع فرعون الأساسيين ومؤيديه كانوا من الملأ لديه كما نرى من كلامه (القصص ٣٨).
فقد أحكم فرعون سيطرته على هذا الملأ الذي يضم أهم الأشخاص في مصر وأجبرهم على الإعراف
بالوهيته المزعومة. وبحصول هذا الملأ على إحترام الشعب فقد ظن هؤلاء أن هذا النظام سينفعهم
ويكون لصالحهم. وهذا هو سبب قبولهم لألوهيته. ولكن تصرفهم هذا باء بالفشل وخاب ظنهم، وكان
مصيرهم النار والعذاب في هذه الدنيا وفي الآخرة. وقد شرح لنا القرآن موقف هؤلاء ومصيرهم:

{إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) يَفْقَهُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
فَأُورِدَهُمُ النَّارَ وَيُنَسِّ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُنَسِّ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ (٩٩)
ذَلِكَ مِنْ أَتْبَاءِ الْفَرَى نَقَصَهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا
أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ فَمَا أَعْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الْيَئِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا
زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١)} (هود: ٩٧-١٠١)

وقد أطاع فرعون أيضاً جيش مصر وشعبها، الذي كان فقيراً، ضعيفاً ومحتاجاً:

{وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا
تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلَا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِنْ ذَهَبٍ
أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَّاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤)}
الزخرف: ٥٤-٥١)

وقد كان في مصر عدد كبير من بني إسرائيل الذين كانوا في الأسر، وكانوا مضطهدين وفي حالة
من خوف من فرعون، وقد ظنوا كما فعل شعب مصر أن فرعون يملك القوة من دون الله، فخافوه
كما يخافون الله تعالى. وفضل هؤلاء الإستسلام والخضوع لفرعون على الإيمان بالدين الصحيح:

{فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ
لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ} (يونس: ٨٣)

لقد آله المصريون فرعون لعدة أسباب: الإضطهاد، الخوف، الجهل، ورجبتهم في حماية
مصلحتهم بإي ثمن. وكنتيجة لذلك، فقد تحولوا إلى الشرك بتأليهم لفرعون و بنسيانهم أن الله هو

الإله الوحيد وأنه وحده الجدير بالخوف والتقدير. فكان يجب عليهم أن يؤمنوا به ويتوكلوا عليه ويتبعوا الطريق الذي بينه لهم عن طريق الأنبياء والرسل ليفوزوا برضوانه تعالى. فلو أنهم تيقنوا أن الله هو وحده القوي لما كانوا خافوا من فرعون وبطشه.

لو أنهم أدركوا أن فرعون ليس إلا مجرد إنسان عاجز تحت سيطرة الله لما كانوا رضخوا له. فيما أنهم فشلوا في إدراك أن كل ما يملك فرعون من كنوز، مجد، وقوة عسكرية هو في الواقع ملك لله، فقد عجزوا عن تقديره تعالى حق قدره، وبالتالي، خدعوا بقوة فرعون الظاهرة. لو أنهم علموا أن الله قادر على أن يسلب فرعون كل ما يملك متى شاء، ما كانوا أظهروا هذا التصرف الشركي وتحملوا كل هذه الإهانات. ولكن الله أظهر لهم عجائب قدرته حين أغرق فرعون وبين لهم بالتالي ضعفه. وهذا المثل الذي بين لنا الخزي العظيم الذي أصاب الذين ألهاوا فرعون، يبقى مثل رائع لأنظمة الشرك التي كانت، وما زالت مستمرة في مختلف المجتمعات.

الذين يعبدون الأصنام

لقد سبق و عرفنا الأوثان على أنها أي شيء حي أو غير حي نصب على أنه مساوٍ لله تعالى. في هذا القسم ، سنستخدم هذه الكلمة في معناها التقليدي : أصنام تنحت وتعبد من الناس. للوهلة الأولى ، قد يظن القارئ أن عبادة الأصنام هي عادة المجتمعات القديمة أو بعض القبائل البدائية التي لم يصل إليها العلم الحديث أو التقنية. غير أن هذا الافتراض غير صحيح، لأن في صميم هذا النوع من الشرك وهذه الأصنام يكمن الأشخاص والمبادئ التي تمثلها هذه الرموز. فإذاً، فإن الذين يعبدون هذه الأصنام يتبنون عموماً الأفكار و طريقة العيش التي تمثلها أصنامهم وليس هذه الأصنام بحد ذاتها. أي أنهم يحاولون تخليد الكينونات والجهات التي يرونها مساوية لله (القادة، المشرعين، الحامين أو المنقذين) بنصب التماثيل لهم.

ففي نهاية الأمر، هنالك منطوق رمزي وراء هذه الممارسة. وبما أن هذه الأصنام تمثل الكينونة، الشخص، أو المبدأ الذي يعتبر مساوياً لله، فإنها تتلقى التوقير والعبادة اللذان هو وحده تعالى يستحقهما. فما نصب على أنه مساوياً لله هو ما يمثله الصنم من معنى و عقلية معينة. و يذكر القرآن النبي إبراهيم في هذا السياق:

{إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا

عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ (الأنبياء: ٥٣-٥٢)

كما تظهر هذه الآيات، فإن هذا النوع من العبادة موروث عن الأجداد. وبغض النظر عن عدم منطقيتها، فإن عبادة الأصنام قد تصبح نوعاً من التصرف " الصحيح " و " العقلاني " حتى في أكثر المجتمعات تحضراً، وذلك ناشئ عن الفلسفة التي ينشأ عليها بعض الأشخاص منذ الصغر. من صفات التماثيل المنحوتة أنها تتساوي تدريجياً مع الشخص أو المبدأ التي تمثله. فمثلاً، أله الناس بودا في باديء الأمر بصفته شخص في الهند. ثم نحتت التماثيل التي تمثله لتخليد ذكره وأقواله. وقد ألهت هذه التماثيل بحد ذاتها مع الوقت حتى أصبحت اليوم أصناماً يعبدها الناس و يوقروها، يتوجهون إليها بالدعاء ويطلبون مساعدتها. إن الأشكال الأخرى لعبادة الأصنام هي مبنية على نفس المنطق.

يطلعنا التاريخ والقرآن على واقع أن العرب في زمن الرسول (ص) كان لديهم عدد كبير من الآلهة. إذا نظرنا إلى الوثائق التاريخية، فإننا نرى بكل وضوح أن هذه الأوثان في الواقع تمثل أو ترمز إلى مفاهيم محددة. بكلام آخر، فإن العرب لم يعبدوا في الواقع الأشكال والتماثيل المصنوعة من الحجارة والخشب، بل إنهم كانوا يعبدون المعاني التي تجسدها (كالقوة، المال، النساء أو الوفرة). لذا، فإن هذه الأصنام لا تختلف كثيراً عن القيم التي تُعبد في يومنا هذا وتُفضل على دين الله من كثير من الناس. فمن الخطأ إذاً أن نفكر في القبائل والشعوب القديمة حين نشير إلى المشركين أو عبادة الأصنام لأن نظير هؤلاء موجود اليوم وفي أحسن حال. إن هؤلاء يؤمنون بالله و لكنهم إنحدروا إلى الشرك بسبب تأليههم لمختلف المفاهيم وجعل هذه المفاهيم أهم عندهم من الله. عندما تحرر بنو إسرائيل من فرعون، مروا في رحلتهم على قوم يعبدون الأصنام فسألوا موسى أن يجعل لهم صنم مثلهم:

{وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَؤُلَاءِ مُمْتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) { (الأعراف: ١٣٩-١٣٨)

إن هذا التصرف الجاهل يظهر لنا كيف أن بنو إسرائيل لم يقدرُوا الله حق قدره. بل أنهم أرادوا إله يستطيعون رؤيته، السجود له، وإقناعه بتلبية رغباتهم عن طريق قيامهم ببعض الشعائر. ومع أن موسى (ص) كان قد أرشدهم إلى الحق، فإنهم سرعان ما اتخذوا لهم آلهة أخرى ما أن غادر الطور. ويشير القرآن إلى أنهم ندموا فيما بعد بسبب عملهم هذا:

{وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلْمَ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨) وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٤٩)} (الأعراف: ١٤٩-١٤٨)

ويقول الله تعالى:

{إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيِّئًا لَهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢) وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ (١٥٣)} (الأعراف: ١٥٣-١٥٢)

الذين يعبدون الجن

يعتبر بعض الناس أن الجن يتساوون مع الله. إن هذه المخلوقات من نار و ليس من طين كالبشر(الرحمان: ١٥). وبما أنها غير مرئية وهي تملك قدرات وصفات مختلفة عن البشر، فإن بعض الناس الذين يتعاملون معها يبدؤون بتعظيمها ووضع آمالهم فيها. فهم يتوهمون أن الجن وقدراته مستقلان عن الله تعالى. وباختصار فإنهم ينشدون مساعدتهم قدراتهم من دون الله تعالى:

{وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا} (الجن: ٦)

{وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنِّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ} (الأنعام: ١٠٠)

ولكن في الواقع فإن الجن لا يختلفون عن أي مخلوق آخر من جهة أنهم عباد لله تعالى ولا يملكون أية قدرة أو علم غ ما أنعم الله تعالى به عليهم. وكما هو حال البشر فإن منهم المؤمن والكافر، وهم يمتحنون في هذه الدنيا ومصيرهم إلى الجنة أو إلى النار. العديد من الآيات تحتوي على معلومات مهمة بهذا الخصوص:



{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} (الذاريات: ٥٦)

بما أن الجن مخلوقون لعبادة الله تعالى، فإنهم يدينون بوجودهم له ومحتاجون له. فكيف يستطيع أي إنسان بعد هذا أن يألهمهم ويطيعهم بسبب امتلاكهم لبعض القدرات؟ ومع ذلك فإن هذا ما يفعله الكثير من الناس باعتبارهم مساوين لله. غير أن هؤلاء الذين ينسبون إلى الجن قوة مستقلة عن الله، والذين يساؤونهم به سوف يصابون بخيبة أمل عظيمة عندما يفشل الجن في الإستجابة لهم. وسيدركون في الآخرة أنهم كانوا في الحقيقة مشركين:

{وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الْجِنَّةَ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ (١٥٩)} (الصفات ١٥٩-١٥٨)

{وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ قَدِ اسْتَكْتَرْتُمْ مِنْ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا آجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتُمْ لَنَا قَالُوا نَارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} (الأنعام ١٢٨)

الذين يؤلهون أهوائهم

يؤله الناس أيضاً أهوائهم، أي شهواتهم، رغباتهم ونزواتهم. فبتقديم أهواءهم على أوامر الله تعالى بعبادتهم للأصنام والجن والمخلوقات الأخرى، فإن هدفهم الأهم هو إرضاء نزواتهم وشهواتهم الخاصة. ويكثر أمثال هؤلاء في المجتمع. إن شهوات الدنيا ليس لها حدود، غير أن هؤلاء يسعون إلى إرضائها كلها. وكنتيجة لذلك فإنهم يجدون أنفسهم مضطرين إلى تجاوز الحدود التي وضعها الله وإلى مخالفة أوامره ونواهيه. يقول النبي يوسف (ع):

{وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ} (يوسف ٥٣)

قد تكون الشهوات الدنيا عبارة عن رغبة في الثراء، أو ملك عظيم. لتحقيق هذه الرغبات فإن الكثير من الناس يلجؤون إلى وسائل غير أخلاقية (كالسرقة والخداع) إذا لم تتوفر الوسائل الشرعية،

مع أن الله حرم هذه التصرفات. وتشجع الشهوات الدنيا الناس على تجاهل الأعمال الصالحة كالإعتناء بالآخرين وإيتاء الزكاة لتطهير أموالهم. أما المؤمنون حقاً، فهم يلتزمون بأوامر الله تعالى ويجتنبون ما حرم. بالمقابل فإن الذين يؤلهون شهواتهم يتبعون رغباتهم و ينتهكون أوامره ونواهيها. تمثل الشهوة رغبة دنيوية أساسية. فالذين يتبعون رغباتهم لا يرون أي خطأ في الزنا وحتى أنهم يشجعون الناس على ممارسته، مع أن الله تعالى قد حرم ذلك. لذا، فإن بعض الناس الذين يعملون هذه الفاحشة مع العلم بتحريمها، والذين لا يرون فيها أي خطأ ولا يظهرون الندم على فعلتها، ولا يتوبون توبة صادقة من هذا الذنب العظيم، هؤلاء قد قاموا بتأليه أهوائهم جاعلين لله الأنداد. فهم إذاً وقعوا في الشرك:

{الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ} (النور ٣)

ليس هنالك حد للشهوات الدنيا. لذا، فإن انقياد الناس لهذه الشهوات من دون القيام بأي شيء لمحاولة التحرر منها، سيقودهم إلى تجاوز الحدود التي وضعها الله تعالى. وبكلام آخر فإنهم بعملهم هذا يؤلهون أهوائهم ويتحولون إلى الشرك، وذلك لأنهم نسوا رضوان الله تعالى. سيختفي عقلهم و بصيرتهم شيئاً فشيئاً، وسيتضاعل ضميرهم، وسيجدون أنفسهم ينحدرون إلى منزلة البهائم:

{أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٤)} (الفرقان ٤٤-٤٣)

إن هذا أكثر أشكال الشرك إنتشاراً في مجتمعات اليوم. الكثير من الناس في هذه الأيام غافل عن الله والقيم الأخلاقية الدينية. وكنتيجة لذلك، وكونهم غافلين عن أي حد حين يتعلق الأمر بإشباع شهواتهم ورغباتهم، فإنهم يمشون جزءاً كبيراً من حياتهم يتبعون ما يعتقدون أنه سيسعدهم: أي المنزل والمكانة الإجتماعية والثروات التي تنشأ من إكتساب المال الكثير و الممتلكات. ومع أن امتلاك الثروات ليس سيئاً بحد ذاته، إلا أنه يجب علينا أن نعي الأمر التالي: ففي سبيل إشباع الشهوات والرغبات، فإن الناس يقومون بالتنازلات عندما يواجهون متطلبات الدين، أي أنهم يتحولون إلى الشرك لإنهم يفضلون إشباع رغباتهم على الإلتزام بأوامر الله و نواهيها. فالأمر كما لو أن على أعينهم غشاوة تمنعهم من التفكير في خالقهم، لماذا خلقوا أو يوم الحساب.

{أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} (الجمانية ٢٣)

بما أن المشركين لا يستخدمون عقولهم و ضمائرهم، فإنهم عاجزون عن الحكم بطريقة سليمة على الحقائق الأساسية. فهم غافلين عن الله و قدرته وهم في حالتهم تلك يشبهون صاحب الجنة الموصوف في سورة الكهف. وهذا الوصف يشكل مثل قيم لضعف عقل المشركين و منطقهم:

{وَأَصْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفْرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَى رَبِّي لِأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (٣٦)} (الكهف ٣٢-٣٦)

إن هذا وصف دقيق للناس الذين ضلوا عن الدين، فشلوا في تقدير الله تعالى كما ينبغي، ولا يؤمنون باليوم الآخر. عندما يواجهون بإمكانية الموت والفتنة، فإنهم يواسون أنفسهم يا بالظن بإمكانية وجود آخرة حيث يأملون أن يكونوا سعداء ومكتفين. غير أنهم بعدم إيمانهم بالبعث بعد الممات فإنهم لا يستعدون لهذه الآخرة.

من الجيد أن نذكر شيئاً مهماً هنا: جميع الناس، سواء مؤمنين أو كافرين، لديهم شهوات ورغبات غير محدودة. فالله يستعمل هذه الشهوات والرغبات ليمتحن الناس بها لإظهار معدنهم الحقيقي. فمن كان ورعاً ومخلصاً لله فإنه يسيطر على هذه الشهوات ويلتزم بأوامره ونواهيه. أما من كان مخلصاً لنزواته وأهوائه، فهو يتجاهل حدود الله تعالى في سبيل إشباع رغباته. وبما أن أفراد الفريق الثاني يفضلون شهواتهم على رضوان الله فقد حكموا على أنفسهم بالخلود في العذاب:

{وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَّذِينَ أُذْهِبْتُمْ أَلْيَابَكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْرَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَيَمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ} (الأحقاف ٢٠)

{يَطَّافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} (الزخرف ٧١)

الذين يألهون أنفسهم

شكل شائع آخر من أشكال الشرك هو تأليه الذات. قد يتوهم البعض للوهلة الأولى أن هذا النوع نادر الوجود. غير أن الواقع عكس ذلك. الكثير من الناس قد لا يشعرون أنهم يمارسون هذا النوع من الشرك، و لكن عند تفحص أنفسهم بصدق يجدون أن هذا الداء بالواقع موجود لديهم. فمثلاً، أكثر الناس يعتقدون أن نجاحاتهم، هيئاتهم الجميلة، ذكائهم، جاذبيتهم، غناهم، ممتلكاتهم، مكانتهم، منزلتهم، وعدة أمور أخرى مشابهة هو نتيجة مجهودهم الشخصي. فيصيبهم الفخر نتيجة ذلك. وكلما كان لديهم ميزة إضافية من هذه الميزات كلما ازداد فخرهم. بإقتناعهم بأن جميع هذه الأمور مصدرها أنفسهم وأنهم هم وحدهم مصدر نجاحهم هذا، فهم يستخفون الأشخاص الآخرين ويعتبرون أنفسهم متفوقين عليهم.

هكذا أشخاص يشيرون إلى أنفسهم بغطرسة وتكبر. وهذا في الأساس إثم عظيم لأن الله وحده هو الذي يمنح الشخص أي شيء. فمثلاً، فإن الجمال عطية من الله. وبما أن الجمال مصدره من الله فإنه يجب أن يُثنى عليه وحده بصفته المالك له. جميعنا يعلم أن الفنان الذي رسم اللوحة هو فقط الذي يستحق الثناء لجمالها، بما أن هذه اللوحة لم توجد نفسها.

الممتلكات والثروات يجب أن يُنظر إليها بنفس الطريقة، لأنها كلها في الحقيقة مملوكة لله تعالى، وفي مقدوره إسترجاعها متى شاء ذلك. فمن الخطأ الكبير أذاً أن يغتر الناس و يتباهوا بملكهم شيئاً هو ليس لهم في الحقيقة. بل يجب عليهم أن يعوا بأن كل ما يملكون، سواء أكان مادي أم لا، هو ملك لله، وأن يشكروه على ذلك. قال النبي سليمان (ص) بشأن حبه للخيل وممتلكاته:

{ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِيَاتُ الْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) } (ص ٣٢-٣٠)

ذو القرنين الذي أمده الله بالقوة، الأسباب والنعم، أعان قوماً على يأجوج و مأجوج. ومع أنه استطاع تحقيق إنجاز عظيم بمنعه إنتشار الفساد، فإنه لم يطلب شيئاً لنفسه، بل أنه عَزَى ذلك إلى الله قائلاً:

{قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا} (الكهف: ٩٨)

من الواضح أن هذا الخضوع لله هو مثال حي لتصرف المؤمنين. فإنهم دائماً ما يلجؤون إليه تعالى لعلمهم أنهم عاجزون تماماً أمامه وأن كل أمر يتوقف عليه تعالى. إستناداً إلى ما قد قيل حتى الآن، فإن الإعتقاد بأن الشرك يمثل فقط السجود أمام أصنام منحوتة يمل منظوراً ضيقاً جداً و سطحياً. فالمشركين هم فقط الذين يستعملون هذا المنطق في سبيل تبرأة أنفسهم من كل إثم. فمعظم الأشخاص يظنون أن مبدأ الشرك إختفى إلى غير رجعة بعد أن حطم الرسول (ص) الأصنام في الكعبة المباركة. غير أن العديد من الآيات تصف الشرك بدقة وتحذر المؤمنين منه بشدة. وبما أن منطق القرآن يصلح لكل وقت ومكان فإن هذه الآيات أوحيت لتعليم الناس الحكم. يشير القرآن إلى المشركين الذين فرضوا القوانين، التشريعات والفروض على قومهم، وتحولها إلى جزء من الدين الإلهي. ولكنهم كانوا كاذبين.

الذين يجعلون لله أنداداً بإسم الله وبإسم الدين

في آخر الفصل السابق، تكلمنا عن المشركين الذين ضلوا عن جوهر الإسلام و جعلوا لله الأنداد والشركاء بإختلافهم وفرضهم على الناس، بإسمه تعالى مختلف التشريعات و القوانين، بالإضافة إلى الحدود والوصايا التي ليس لها أي علاقة بالإسلام. لقد غير هؤلاء في الدين لجعله يتناسب مع أهوائهم ورغباتهم و مصالحهم، وحرفوه عن جوهره الحقيقي، وخلقوا بالتالي دين تملؤه الخرافات وأسموه الإسلام. غير أن محتويات هذا الدين تختلف جداً عن الدين الحقيقي الذي أنزله الله تعالى. وبهذه الطريقة، فإنهم لم يجرؤ أنفسهم فقط إلى الشرك، بل أعداداً كبيرة من الناس معهم. إن الناس الغير مدركون لجوهر القيم الأخلاقية الإسلامية و لتعاليم الإسلام الصحيحة يتبنون هذا الدين المشوه الجديد، بل والأسوأ من ذلك أنهم ينظرون إلى هؤلاء "الزعماء" على أنهم مشرعون شرعيون من دون الله. وكنتيجة لذلك، فإنهم يتبنون الشرك على علم منهم، وذلك بإنحرافهم وجعل الشركاء له تعالى وتقديس زعمائهم الذين ضلوا، كما فعل الذين من قبلهم:

{اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا
وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} (التوبة: ٣١)

إن الآيات التالية تصف طريقة تفكير المجتمعات المشركة ومنطقه:

{وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْزُقُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ
شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١٣٧) وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرَّتْ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَسَاءَ
يَرْعَمِيهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ طُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا
يَفْتَرُونَ (١٣٨) وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِدُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ
فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ
وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٤٠)} (الأنعام ١٤٠-١٣٧)

كما تظهر لنا هذه الآيات، فإن لدى المشركين نزعة إلى تحريم نعم الله و ما أحل بوضعهم
تشريعاتهم الخاصة بإسم الدين. إن عقليتهم التي تقوم على التحريم مشوهة للدين. ويركز القرآن
على أباطيلهم وأكاذيبهم الموجهة ضد الله تعالى. وكما يظهر من ذلك، فإن هؤلاء الأشخاص يظهرون
بإسم الله ويدعون أنهم يعملون لدينه. فتخبرنا الآية الأولى أنهم ينشرون الإرباك في الأمور الدينية،
وتخبرنا الآية الثانية أنهم ينشؤون ديناً مختلفاً تماماً، ديناً لا يأذن به الله ولا يرضاه:

{أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ
الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (الشورى ٢١)

ليس مهم إلى أي مدى يظهرون متمسكين بالدين، وليس مهم مراقبتهم وتأديتهم للشعائر
الدينية، وليس مهم إلى أي مدى يدعون أنهم مخلصين وورعين، فهم في نظره تعالى ليسوا إلا
مشركين. ويطلعنا القرآن كيف أن المشركين إلتزموا بنفس المعتقدات المنحرفة ثم قاموا بتوريثها
من جيل إلى جيل:

{سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ} (الأنعام: ١٤٨)

تخبرنا هذه الآية كيف أن المشركين يتبعون ظنونهم وأهوائهم لتحريف الحقائق الدينية. بعض الآيات الأخرى تصف كيف أنهم يفضلون دين أسلافهم المشوه على الإسلام:

{بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (٢٢) وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ أَوْلَؤُكُمْ أَتَتْكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٢٤)} (الزخرف: ٢٢-٢٤)

بإصرارهم الأعمى على الإستمرار على دينهم السلفي، يرفض المشركون الإستماع إلى المنطق. إن ذلك، أضف إليه عقليتهم المتمتمة، المنحازة والمنحرفة، مذكور في آيات عديدة منها:

{وَإِذَا قِيلَ لَهُم اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْلَؤُكُمْ لَآ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ} (البقرة: ١٧٠)

{وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْلَؤُكُمْ لَآ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْلَمُونَ} (المائدة: ١٠٤)

حتى الآن، رأينا كيف أن المشركين ينحرفون عن الطريق القويم بسبب عدم اتخاذهم القرآن كأساس عقائدي لهم. بدلاً من ذلك فإنهم يفضلون إتباع إرث أجدادهم، أعمالهم وعلمهم الذي ورثوه عنهم. فإذا حرم أجدادهم ما أحل الله، إتبعوهم في ذلك. غير أن إتباع ملل الأجداد ليس من الدين الحق في شيء. فالذين يخافون الله تعالى ويتقوه ويسعون إلى رضوانه عليهم أن يلتزموا فقط بالتشريعات الصادرة عن القرآن وعن الرسول (ص)، وعدم إتباع تقاليد الأجداد.

إذا تأملنا في الآيات التي تتناول المشركين نجد أن بعض هؤلاء يشكلون فرق إجتماعية تملك من الصفات، العقائد، والتركيبات المشتركة ما يميزها عن غيرها من فرق مشركي الأديان الأخرى:

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ
 بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} (الحج ١٧)

إن السمة المشتركة لبعض الفرق المذكورة هنا هي أنهم أعضاء في نظامهم العقائدي الخاص. من الواضح أن ما يقصد هنا هو الفرق الباطلة التي تبنت نظامها العقائدي الخاص. ولكن من هم هؤلاء؟

نجد الإجابة عن هذا السؤال عند عرب ما قبل الإسلام. فقد هذه المجتمعات بتبني نظام عقائدي وتعبدي خاص بها، ومنحرف عن الدين الذي أتى به النبي إبراهيم (ع). فهم عبدوا الأصنام ولكنهم لم ينكروا وجود الله تعالى. ومع أنهم أدركوا أنه تعالى موجود إلا أنهم إعتبروا آلهتهم مساوين له، وهكذا انحدروا نحو الشرك. وحتى أنهم زعموا أن آلهتهم تشفع لهم أمامه تعالى:

{وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَنْبِئُونَ
 اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} (يونس ١٨)

يخبرنا القرآن أن هؤلاء المشركين كانوا يذهبون إلى الحج، يستقبلون الحجاج، يزورون الكعبة، يصلون وينفقون المال في سبيل الله تعالى. بكلام آخر، فإنهم كانوا يعتبرون أنفسهم أفراداً مخلصين وملتزمين. ولكن بما أنهم لم يفردهو تعالى بالعبادة، وبما أنهم كانوا يؤدون هذه الأعمال في سياق نظامهم الشركي، فإن هذه الأعمال لم تُعد عليهم بأية فائدة. ليس مهم إلى أي مدى إعتقدوا أنهم كانوا مخلصين، أتقياء أو متفانين لله، وقد حرم الله عليهم دخول المسجد الحرام :

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ
 عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} (التوبة ٢٨)

بما أن القرآن موجه إلى الناس المعاصرين لكل زمان ومكان، فعلياً أن نتأمل كيف تنطبق حِكْمَه في يومنا هذا. إن الآيات التي تخص المشركين، إو تصرفات وعقلية الذين فرقوا دينهم بإسم الإسلام، والذين اتبعوهم ودعوا غيرهم إلى فعل ذلك أيضاً، تصف بوضوح هؤلاء القوم. إذناً، فالأشخاص المعاصرين في هذه الأيام الذين يتصرفون بنفس الطريقة ويتشابهون في العقلية مع من ذكرنا، والذين

يتبعون بدين إبتدعوه، هؤلاء تتطابق أوصافهم مع وصف المشركين في الآيات. اليوم، في الواقع، في زمن تنتشر فيه المعتقدات الباطلة بإسم الدين، فإن الذين يضعون القوانين والفرائض، الذين يحددون الحلال والحرام، والذين يتبعونهم، يشكلون الفرق المشركة التي تفتري الكذب على الله تعالى، تلتزم بدين الأجداد عوضاً عن دينه تعالى وتقول على الله ما لا تعلم.

بالإضافة الى ذلك، يزعم هؤلاء ان دينهم هو الدين الصحيح وأنهم هم المؤمنون الحقيقيون. ولهذا السبب، فقد حرفوا في دينهم وتحولوا إلى الشرك. بغض النظر عن الوقت والمكان، فقد كان هؤلاء دائماً ما يرفضون الرسل المرسله إليهم لإعادتهم إلى الدين الصحيح، معتبرين أنفسهم مخلصين وثابتين على الإيمان. حتى أن بعضهم اتهم رسل الله بافتراء الأكاذيب على الله (آل عمران ٧٨ وسبأ ٨)، وهذه الإتهامات هي نفسها قُذِف بها نبينا محمد (ص)، كما تطلعنا سورة الشورى ٢٤. آيات أخرى تشير إلى هؤلاء المشركين:

{وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجَعَلَ الْإِلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥) وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امسُوا وَاصِبُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَافٌ (٧) أُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابٌ (٨)} (ص ٨-٤)

بإقناع أنفسهم أنهم على الصراط القويم، فإن هؤلاء القوم لن يتقبلوا واقع أنهم كانوا مشركين حتى في يوم الحساب:

{وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَائُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢) ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣)} (الأنعام ٢٣-٢٢)

كما تُطلعنا هذه الآيات، فإن ما يكمن في قلوب الإشخاص " الأتقياء " الذين يجعلون لله أنداداً هو إلتزامهم بالقوانين التي ابتدعوها بإسم الدين، عوضاً عن التي أنزلها الله تعالى. ولكن هذا ليس السبب الوحيد لتحول الذين يتخذون هدياً غير القرآن إلى الشرك. فقبل كل ذلك، فهم يضلون بسبب فشلهم في التعرف إلى الله تعالى وتقديره حق قدره جاعلين بذلك آلهتهم تتساوى مع الله. وعدا عن ذلك، فإن حبهم ومفهومهم لله لا علاقة له بما ذكر في القرآن في هذا الشأن. فالسبيل الوحيد لقدر الله حق قدره وفهم دينه بالطريقة الصحيحة يكون بأن تتخذ القرآن مرشداً وهادياً لنا.

{وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ} (النحل ٨٩)

صفات المشركين

إحدى الصفات الرئيسية في مجتمعات المشركين هي التعصب الديني، الذي يعرفه القرآن بأن يحصر الشخص حياته وينظمها حسب مبادئ، أوامر، ونواهي من صنع الإنسان، ولا تركز على أي أدلة عقلانية صحيحة أو منطقية. في حالة الدين، فإن هذا المصطلح يشير إلى الذين يستبدلون تعاليم الدين الصحيحة ويستبدلونها بأحكام ومبادئ مرتكزة على الظن والتخمين. وقد يُنسب هذا التصرف في بعض الأحيان بطريقة خاطئة إلى المسلمين الملتزمين، مع أنه في الحقيقة يصف المشركين الذين يتبعون قوانينهم، شروطهم الخاصة والإباحات والتحريمات التي جاءت بها أديانهم المشوهة، و إدعاءهم بأنهم يتبعون الدين الصحيح. في الواقع، فإن التعصب هو العامل الأساسي الذي يشجع المشركين على تبني هذا الدين الذي تملأه الخرافات. فشهوات الدنيا تميل بصاحبها نحو التعصب وصفات سلبية أخرى.

قد يجد المشركون أن العيش مع هذه العصبية والدفاع عنها أكثر إغراء لهم من إلتزام الطريق القويم. فهم يستمدون متعة خاصة نتيجة اتباعهم لهذه التعاليم التي تكون أحياناً صوفية، غامضة وملغزة، وهذا، في الواقع، من الأسباب الأساسية لضلال العديد من اليهود منذ زمن النبي موسى (ع). فبعض اليهود المحافظين يظهرون اليوم بمظهر الإخلاص والتقوى- ونحن نعتذر من الذين هم فعلاً هكذا- هم في الواقع ملتزمون بدقة بالشرائع الدينية التي قاموا بتأسيسها بأنفسهم. غير أن هذا الدين ليس الدين الصحيح الذي أنزله الله، وهؤلاء لا يمارسونه لنيل رضوانه ولكن للحصول على الشهوات المستمدة من العيش وفقاً لتعصب الشخص في المحافظة على ما هو قديم ومتوارث.

يملأ المشركون أديانهم المبنية على العصبية بالرموز، العادات، والطقوس الغريبة. ونتيجة لذلك، يصبحون يعرفون من حولهم على أنهم أشخاص أتقيا و على درجة عالية من التقوى والإخلاص لله تعالى، ويصبحون مع الوقت يتمتعون بمكانة مرموقة في مجتمعهم. غير أن هذا التعصب في الواقع ليس سوى نظام اسسوه لإرضاء أنفسهم، لأن، ولسبب ما، فإن جوهر وحقيقة دين الله، أو، للتوضيح أكثر، محتوياته والنظام الذي يقوم عليه ليس كافياً لهم. هم لا يتقبلون واقع أن الإسلام دين يسر يرتكز على الوضوح و المنطق. فهم يشعرون بالراحة فقط لو كان الإسلام فيه

"عسر"، لأن ذلك سيُتيح لهم إستعراض "تقواهم" للناس الآخرين. إن عدم ارتياحهم لواقع أنه يكفي أن يرى الله وحده أعمالهم، يجعلهم يفضلون إتباع دين قام بتأسيسه البشر، مما يتيح للناس الآخرين أن يراقبوا ويعلقوا على "تقواهم وإلتزامهم".

ولكن بخلاف مشركي ما قبل الإسلام الذي كانوا ينتمون إلى الأديان المنزلة قبل الإسلام، فإن هؤلاء المشركين المتأخرين ليس بمقدورهم تغيير ولو كلمة واحدة من القرآن، الكتاب الأخير الذي أنزله الله تعالى. لقد أنبأنا نبينا (ص) أنه لن يُنزل أي كتاب من بعده، ولن يأتي أي دين آخر، وأن القرآن يصلح حتى يوم القيامة. لقد قام الله وسيقوم بحفظ القرآن. إذًا، فمن أراد بصدق أن يتعلم ما هو الإسلام، وما هي متطلباته، بطريقة واضحة ومفصلة، يستطيع ذلك بأن يتخذ من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة قدوة له.

المشركون، في المقابل، يدافعون عن معتقداتهم الباطلة التي تصد الناس عن القرآن. كما تخبرنا آية من القرآن، فإنهم يقولون الباطل مرتكزين على تخميناتهم وظنونهم. بإضمارهم مختلف الفرضيات بما يتعلّق بالله، فإنهم دوماً في حالة من عدم الأمان والغم. وأحياناً، فإنهم يحاولون استرجاع ثقتهم بأنفسهم وتصميمهم بواسطة العدوان، السخرية، الإستهزاء وعدم الإكتراث برأي الغير.

وفي الوقت نفسه، فهم جاهلون عقائدياً و روحياً، فحتى لو قرؤوا وحفظوا كتباً لا تحصى، فهم لن يتنوروا بالقرآن الكريم ولن يعرفوا الله كما يجب، لأنه تعالى عرف عن نفسه فقط في القرآن الكريم. هكذا أشخا ص يعبدون إلهاً مختلفاً جداً، إلهاً صنعه البشر وهو يرتكز على دينهم الباطل. فجعلهم وغياب منطقهم ينعكس بالتالي على كل ما يفعلون. بعجزهم عن فهم القرآن فإن جهلهم العقائدي، غياب عقلهم، ومنطقهم الناقص يسبب لهم باستمرار الإحراج أمام الأشخاص الآخرين. بما أنهم مخلصين لدين باطل ومتناقض، فهم لا يستطيعون أن يدافعوا عن دينهم بشكل منطقي.

هؤلاء لا يتوجهون مباشرة إلى الله أو يقيمون علاقة قريبة معه لأن قلوبهم قاسية ولا يشعرون بأي قرب أو إخلاص له تعالى. الإسلام على ألسنتهم، ولكن ليس في قلوبهم. فهم يجعلون الوسطاء للوصول إلى الله، يعتبرون إرضائهم والحصول على موافقتهم كافيين، ويظنون أن هؤلاء قادرون على مساعدتهم. غير أن جميع هؤلاء الوسطاء في الواقع يبعدهم أكثر فأكثر عن الله ويزيدون من شركهم:

{وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَنْبِئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨)} {يونس ١٨}

إن واقع كونهم بعيدين عن الله يعني أنهم أيضاً بعيدين عن قيمه الأخلاقية. بما أنهم لا يقرأون القرآن، أو أنهم يقرأونه فقط بخلفية شركية تمنعهم من فهمه بالطريقة الصحيحة، فإنهم يُحرمون من البركات، العلم، القيم الأخلاقية الرائعة، والفضائل الروحية التي يقدمها للمؤمنين. لا يستطيع المشركون رؤية مناقبه الفضيلة، لأن ما يستهويهم أكثر هو كل أنواع الفجور واللا أخلاقية والخداع. عدا عن ذلك، فهم مستعدون لكبت ضمائرهم وتعدي الحدود التي وضعها الله للبشرية لتبرير مواقفهم عندما يجدون أنفسهم في مواقف صعبة أو عندما تتعارض رغباتهم وشهواتهم مع الإسلام.

صفة أخرى من صفات هؤلاء هي البخل. تطلعنا آية في القرآن الكريم أن المؤمنين يستخدمون ما زاد عن حاجتهم من المال للإهتمام بالآخرين. أما المشركون في المقابل، فإنهم لا ينفقون إلا القليل- وحتى ذلك، فإنهم يفعلونه للرياء. إن تكديس الممتلكات و الثروات يشكل واحدة من أهم نزواتهم. في الحقيقة، فإن ذلك أحب إليهم بكثير من الإنفاق في سبيل الله. بما أنهم يفتقدون الإيمان الحقيقي، وبالتالي ليس لديهم ثقة في الله أو خضوع له، فهم يخافون دائماً مما يخبئه المستقبل لهم.

يستمر المشركون باستمرار في مستقبلهم. بالتأكيد، فإن هذا العمل لا شيء فيه. غير أنه لا يجب أن يتحول إلى شغف مستهلكاً لصاحبه، لأن هكذا موقف يبرهن عن غياب الخضوع الحقيقي لله تعالى وأيضاً عن نقص في إيمان الشخص وإدراكه أن الله هو الرازق الوحيد. زيادة على ذلك، يتصف المشركون بالحسد، الطمع، الأنانية، وعدة رذائل أخرى. بما أن ليس لديهم حس حقيقي للجمال أو الفن، فهم يتصرفون بخشونة مع الآخرين ويحاولون إظهار ذلك على أنه دليل على تفوقهم وقربهم من الله. وهم أيضاً يسيطر عليهم الخوف، ولا يعلمون سبب ذلك:

{بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥٠) سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١)} (آل عمران: ١٥١)

علاوة على ذلك، فهم متشائمين و ليسوا سعداء، فالمشاكل، الصعوبات، المصائب، والأحزان لا تتركهم. وهذا (في الدنيا) بداية العذاب والخزي الذي سيلاقونه في الآخرة. وعدا عن ذلك، فهم ناثرون على الله عن غير وعي، لأنهم يرفضون التخلي عن دينهم الباطل، الذي يدعون أنهم يمارسونه بإسمه،

والذي بنوا عليه أساليب معيشتهم، تركيبات أسرهم، محيطهم، وعلاقاتهم الإجتماعية والمهنية. ولهذا، فهم لا يناسبهم هجرة أساليبهم القديمة.

إن إحدى أهم صفات المشركين هي " إنما المشركون نجس " (التوبة: ٢٨). وهذا مؤشر على أنهم نجسين جسدياً وروحياً. فإن أجسادهم، ثيابهم ومحيطهم قد تبلغ من الوساخة بحيث تصبح تعرض صحتهم للخطر. بما أن عاداتهم الغذائية مبنية على الخرافات والتعاليم البشرية، فإنه يظهر عندهم في بعض الأحيان خلل جسدي أو معنوي بسبب غذائهم الغير متوازن.

صحتهم الفكرية هي أيضاً ليست بخير، فطريقة عيشتهم السلبية والغير صحية تؤثر على نموهم الذهني وأدائهم العقلي. وهذا ينطبق على مقدرة الحكم على الأمور أيضاً، التي تجعل خطابهم وتصرفهم غير متوازنين، متناقضين، وبعيدين عن المنطق. كونهم عرضة لتقلب المزاج، فإنهم قد تملكهم الإثارة فجأة، فيختبرون تقلب سريع في المزاج من اليأس إلى العدائية، أو يتكلمون بطريقة غير مريحة، بصوت عال، وبنبرة غير متوازنة.

إن كل هذه الصفات تتسبب بإبعاد الناس عي الدين. بإعتقادهم أنهم يخدمون القيم الأخلاقية الدينية وأنهم يحاربون الإلحاد، فإنهم في الواقع يتسببون للدين بأذى أكبر من الأذى الذي يتسبب به الملحدون. في الحقيقة، فإنهم غير مدركون أن أعمالهم الكثيرة هذه تؤثر سلباً على الدين الصحيح:

{ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنََّّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٧) } (الزخرف ٣٧-٣٦)

عندما يخبرهم أحد بذلك، فإنهم إما يعجزون عن، أو يرفضون فهم هذا الأمر لأنهم ليسوا صادقين في الأمور التي تختص بالدين. حتى لو قرأوا كتب ومقالات عن هذا الموضوع، فإنهم سيبقون غير مدركين لواقع أنهم لا يتعاملون بالطريقة المباشرة والصحيحة مع هذا الموضوع. ولو أنهم أدركوا ذلك، لادعوا العكس. حتى ولو كانت كل هذه الأوصاف تنطبق عليهم حرفياً، فسيبقون على رفضهم لهذا الأمر ويبحثون عن الشرك في مكان آخر.

أما بالنسبة إلى هؤلاء الذين هم صادقين في دينهم ولكنهم يقعون بعض الأحيان في سوء الفهم لقصر علمهم وجهلهم في بعض أمور الدين، فإنهم يستطيعون دوماً أن يعتمدوا على ضمائرهم لتصحيح سوء الفهم لديهم وتعلم الأمور بالطريقة الصحيحة. فإذا أنابوا ورجعوا إلى الطريق الصحيح، فإن الله إن شاء يقبل توبتهم إن كانوا صادقين في ذلك. إن الأشخاص الذين ينضمون إلى

المشركين على جهلٍ بالحقائق والذين ليس لديهم صفات الشرك الحقيقية، فهؤلاء يرجى لهم أن يعودوا إلى الصراط المستقيم بسبب صدقهم ونيتهم الطيبة. إن هدفاً من أهداف الكتاب هو الوصول إلى هكذا أشخاص وتمكينهم من معرفة أخطائهم، لجعلهم مدركين للظلمة التي تحيط بهم، ولحثهم على التوبة والدخول في دين الله تعالى.

إذا لم يرفع الله الغشاء عن أعين، آذان وقلب الأنسان فإنه لا يتوقع لهذا الشخص أن يستيقظ ضميره، وأن يصل هذا النجاة والخلص. إن السبب وراء فشل شخص ما في الوصول إلى الحقيقة، والإعتقاد أن هذا الأمر لا يعنيه، بالرغم من قراءته لهذا الكتاب، هو معجزة من معجزات الله. أما في وضع طبيعي، فإن النتيجة المرجوة هي أن ينجو هذا الشخص. يجب أن لا ننسى أن القلوب بين يدي الله وهو الذي يهدي من يتقرب إليه بإخلاص، يتوب، يدرك خطأه، ويطلب النجاة فقط منه تعالى. فعلى المرء إذاً أن يحذر من الوقوع في الشرك، وأفضل طريقة لفعل ذلك هي أن يدرك الشخص من البداية أن الله موجود وماذا يعني ذلك، ثم أن يراجع معتقدات مجتمعه، وكذلك معتقداته الشخصية، ونظرته إلى الإسلام. ليس من العيب أن يعترف المرء بأخطائه ويقوم بتصحيحها. بل على العكس من ذلك، فإن هذا يدل على الصدق، وهو دليل على تقوى المرء وتوقيره لله تعالى. كما رأينا حتى الآن، فإن الإعراض عن القرآن والسنة والإلتزام بالمذاهب الضالة والمنحرفة، الممارسات، والمعتقدات الباطلة، يقود الشخص إلى التناقض والشرك عوضاً عن الطريق القويم. لهذا السبب، فإن الحل الوحيد هو التمسك بهدي السنة و هدي القرآن.

أسباب الشرك الرئيسية

عاملان أساسيان يقودان الناس إلى الشرك: الجهل العقائدي وعدم الإخلاص. لإجتناّب الشرك، فإن على الناس أن يمتلكوا الإيمان المطلوب والكافي وأن يتحاشوا كل أنواع عدم الصدق والإخلاص.

الجهل العقائدي

إن من أهم العوامل التي أطلعنا الله تعالى عليها فيما يتعلق بالقيم الأخلاقية الدينية هي الجهل العقائدي:

{وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ} (التوبة: ٦)

فقط القرآن يحتوي على العلم الأساسي للعقيدة الصحيحة ، لأن ما من كتاب آخر يصف بدقة ماذا يعني الإيمان بإله واحد الذي هو الله تعالى، يعرف لنا مفهوم الأوثان والآلهة المعبودة من الناس، يشرح لنا الشكل الذي يجب أن يكون عليه الإيمان الصحيح، يفصل لنا التصرف والعقلية التي ترضي الله، يظهر ضلال الذين انحرفوا نحو الشرك، يفضح خطط الشيطان وخطاه، ويطلعنا على المواقف والتصرفات التي علينا تجنبها.

على القارئ أن يعي أن هذا العلم الذي نتكلم عنه هنا ليس مجرد تجميع للوقائع، لأن " العلم "، كما يعرفه القرآن، هو الذي يؤثر على قلب الأنسان ويستحث قلبه وعقله. فإذا تعلم الناس العلوم المذكورة في القرآن من دون أن يتفكروا فيها كما يجب، فلا يتوقعوا الحصول على أية إفادة منها. تخبرنا عدة آيات عن وحدانية الله وأن أي شيء سوى الله قد يعتبره الناس إلهاً، هو في الواقع غير موجود. وتطلعنا على الشرك، أشكاله المتعددة، وأتباعه. لقد ذكر القرآن هذه الأمور بشكل متكرر ومفصل للتأثير على الناس وجعلهم يدركون مدى أهمية فهم هذه المصطلحات. فالذين لم يقرؤوا ويتفكروا في القرآن، هم، بحسب القرآن، جاهلين عقائدياً.

إن موقف هؤلاء شبيه بموقف المجتمعات المشركة ما قبل الإسلام. هذه المرحلة عُرفت بين العرب المسلمين كونها "مرحلة الجهل العقائدي". أن الذين يرفضون الإسلام، بغض النظر عن متى وأين يعيشون، يُعتبرون جاهلين عقائدياً. فيما أن القرآن أُوحي منذ ١٤٠٠ سنة، ونجده اليوم مترجماً إلى أكثر اللغات، فلا يوجد أي سبب أو تبرير لهكذا جهل أو شرك. قد يدعي الناس الإخلاص في دينهم، ولكن إذا كان إيمانهم مرتكز على الأباطيل والخرافات المتوارثة، فإنهم يبقون على جهلهم هذا لأنهم لا يعيشون حسب قيم القرآن، ولم يفهموا بعد العقيدة بالشكل الصحيح الذي أرادته الله لهم:

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلًا كَانِ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ} (المائدة: ١٠٤)

لقد قام العديد من الأنبياء بوصف المشركين على أنهم قوم جاهلون عقائدياً:

{وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ} (الأعراف: ١٣٨)

{وَأَذْكُرُ أَخَا عَادٍ إِذْ أُنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣)} (الأحقاف: ٢١-٢٣)

إن مفهوم الجهل الذي ذكر في الآية له معنى هام، لأنه لا يشمل فقط عدم العلم، ولكن أيضاً العجز عن فهم الحقائق حتى عندما يراها الشخص و يتعرف إليها. بنو إسرائيل الذين عرفوا النبي موسى (ع) والتوراة التي أنزلت عليه، والذين شهدوا معاناته مع فرعون، هم خير مثال على ذلك، فهم اتخذوا آلهة أخرى حتى بعد أن جاءهم العلم. فكان الأمر وكأنهم لم يعلموا شيئاً. والأغرب من ذلك أنهم سألوا موسى (ع) أن يجعل لهم صنماً ليعبدوه. وهذا يظهر لنا أن النجاة من الجهل العقائدي يكمن في التعلم وأيضاً في فهم هذا العلم الذي يدخل قلب المرء فيؤثر فيه وينعكس في أفكاره وتصرفاته.

وهذا هو الخطأ الذي ارتكبه بعض الناس الأوائل الذين انحرفوا إلى الشرك، وخاصة بعض اليهود (ونحن نعتذر هنا من الصادقين منهم). فمع أنهم كان لديهم العلم الكافي ومع أنهم درسوه وفقهوه جيداً إلا أنهم أصروا على ضلالهم. ويصف القرآن هؤلاء بالحمار الذي حُمِلَ الأسفان:

{مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} (الجمعة: ٥)

ويخبرنا القرآن أيضاً.

{أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} (البقرة: ٧٥).

بكلام آخر، فإن امتلاك العلم الرباني ليس كافياً. فالمرء يحتاج إلى قلب صادق وسليم، قلب متجذر فيه التقوى والتوقير لله تعالى، لفهم وتقدير هذا العلم كما ينبغي.

عدم الصدق

يعرّف القرآن لنا عدم الصدق بأنه رفض الإلتزام بالأمور التي ذكرناها سابقاً، حتى بعد تعلمها وفهمها، وذلك بهدف الحفاظ على المصالح الدنيوية. إن الذين يقرأون القرآن ويحكّمون المنطق والعقل يستطيعون أن يفهموا بسهولة أي نوع من التصرفات والفضائل ترضي الله تعالى. فبعد الإطلاع على هذا العلم، فعلى الشخص أن يلتزم به ويبني حياته على أساسه وذلك حسب درجة الصدق لديه.

أما من كان غير صادق فإنه سيترك هذه الحقائق من دون أي تردد لتحصيل فوائد ومصالح قليلة. فبسعيهم وراء رغبات، أطماع، وشهوات الدنيا، فإن هؤلاء يتعدّون الحدود التي وضعها الله لمصلحة الناس. وبتجاهلهم لأوامره ونواهيه، فإنهم يعيشون لهذه الدنيا فقط ويبيعون آخرتهم مقابل لا شيء فعلياً.

كما رأينا سابقاً، فإن الذين يجعلون لله أنداداً وشركاء لن يبرؤوا من هذا الإثم العظيم إلا إذا تخلّصوا من هذا المعتقد المنحرف وتابوا بصدقٍ إلى الله. لا يمثل إظهارهم لأكثر درجات التشكيك والتدقيق في الأمور التي لا تتعارض مع مصالحهم الدنيوية أي فرق. فمثلاً، فإن المحافظة على بعض الواجبات الدينية قد لا يعود عليهم بأية فائدة بحال تعمدوا تجاهل أمر واحد من أوامره تعالى - إذا أهملوا إقامة الصلوات الخمس، مثلاً- فإذا استمروا بسلوك هذا الطريق، فإن ذلك قد يؤدّي إلى انحرافهم إلى الشرك. فيما أنهم ينتقون ويختارون من الدين الأوامر والنواهي التي يرغبون بالإلتزام بها، فإنهم بذلك قد حوّلوا أهوائهم إلى أله يتبعوه.

{وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦)} (الزمر: ٦٦-٦٥)

كما نرى، فإن عدم الصدق بهذا المعنى ليس محصوراً بهؤلاء البعيدين عن الأخلاقية الدينية. فبعض الأشخاص الذين يتحوّلون إلى الشرك بسبب عدم صدقهم يطبّقون المعايير المزدوجة وفي نفس الوقت يحافظون على الظهور بمظهر الوّرع. بكلام آخر، فهم يسعون إلى إشباع رغباتهم بإضافة

دوافع دينية إلى حياتهم. ولكن محاولة إراحة ضمائرهم عن طريق خداع الذات لن تنجح. فهم يتقيّدون بالدين وفق أهوائهم الشخصية، وليس وفق أوامر ونواهي الله تعالى، وبذلك ينشأون، ويعيشون طبقاً لهذا الدين الخاص الذي أنشأوه. أما المخلصين في دينهم، الذين يلتزمون بما أنزل الله عوضاً عن رغباتهم، دوافعهم الخاصة وآرائهم الشخصية، فهؤلاء يسعون فقط إلى رحمة ورضوان الله. فكونهم عباد مخلصين له، لا يسعهم فعل إلا ذلك. فهم لا يتخيرون أبداً بين أهوائهم ودينهم.

أما المشركين، الذين يملكون عقلية مختلفة تماماً عن عقلية المؤمنين، فهم من البداية غير مخلصين لله تعالى. مع أنه يعلم ما في قلوبهم، يتّاهون، أكاذيبهم، وكل أعمالهم، فإنهم يستمرون في اتباع طريقهم الخاصة القائمة على النفاق مع إعتقادهم المنحرف أنه تعالى سينقبّل أعدارهم الكاذبة. فهم دوماً يقنعون أنفسهم بهذه " الحقيقة "، لأن أغلبهم يردون حين يُسألون، أنهم يستحقون الجنة.

ولكن القرآن يخبرنا شيئاً مختلفاً: إن الذين يتّجهون على علم نحو الشرك، على الرغم من معرفتهم للحقيقة، قد فقدوا القدرة على التحليل المنطقي. فإذاً ليس هنالك جدوى من توقع أي منطق أو عقلانية في معاييرهم المزدوجة الغير مفهومة والكاذبة. ولهذا السبب فإننا نرى أن الغفلة وعدم القدرة على تقدير الله تعالى حق قدره يكمن وراء عدم صدقهم، وبالتالي جعل الأنداد والشركاء له سبحانه:

{وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} (الزمر: ٦٧)

أن المشركين المنافقين والغير صادقين يشكّلون خطر على أنفسهم وعلى الآخرين، لأنهم يدعون هؤلاء إلى اتباعهم. إن السبيل الوحيد للخروج من هذه المشكلة يتمثل في إخلاصهم لله وإدراكهم أنه تعالى سوف يتغمدهم برحمته في حال تابوا إليه توبة صادقة. وهذا يتضمّن اللجوء إلى الله بقلب صادق مع تأسيس حياتهم على رضوانه تعالى، تعلّم الحقائق القرآنية، وتطبيق ما تعلموا في حياتهم. غير أنهم لن ينجحوا بذلك إلا بحال أسلموا لله بأسرع وقت، بشكل كامل ومن دون أية شروط، وحينها يأملون بنيل رحمته تعالى:

{قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً
إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ

{(٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٥٥)}

(الزمر: ٥٥-٥٣)

العاطفة: خطر قد يقود إلى الشرك

كما قلنا سابقاً، ليس للشرك أي أساس عقلاي أو منطقي. فإن الشخص لا يبدأ بالتفكير كيف سيّخذ آلهة أخرى ويجعل لله الشركاء. في الواقع، عندما يبدأ الناس بالتفكير بوضوح و يستعملون منطقهم وضميرهم للتفكّر في محيطهم، فإنهم سرعان ما يعلمون أن الله هو الإله الوحيد. غير أن بعض الناس، الأكثرية ربّما، لا يتفكرون، وبالتالي يسلكون السبل المنحرفة.

إن الفشل في الإلتزام بهذه الحقيقة، أي لا إله إلا الله، حتى عندما يتقبّلها الشخص عقلياً ومنطقياً، مصدره العوامل العاطفية المتعددة التي تؤثر على تفكير الشخص ومنطقه. بهدف الإيجاز، فإننا سنشير إلى ذلك على أنه " العاطفية " أو " الرومانتيكية " .

يستطيع الناس أن يفكروا ويتصرفوا بطريقة صحيحة فقط عندما يحكّمون عقلهم. العديد من الآيات القرآنية تصف كيف يفقه المؤمنون الحقائق المهمة باستخدام عقلهم وكيف أن المشركين والمنافقين يجدون أنفسهم دائماً في المآزق بسبب عدم إستخدامهم لعقلهم. أحد أهم الأسباب لهذا هو أنهم يتصرفون فقط طبقاً لعواطفهم. فالعاطفة، التي تطمس المنطق، تجعل الناس عرضة لإيحاءات الشيطان وتجعلهم ألعوبة بين يديه. فهو، عبر هذا " السلاح " يوجّه المشركين كيفما يشاء و يسوقهم إلى الإنحراف والضلال.

إن الله تعالى يمنح المشاعر كالحب، الخوف، الثقة، الحاجة، والأمان للناس منذ ولادتهم. على الناس أن يستعينوا بهذه الصفات لنيل رضوان الله، إتّباع هدايه، والدفاع عن الخير والحقيقة. ولكن بحال تحوّلت هذه المشاعر عن هدفها الحقيقي، فإنها تصبح تمثّل قوة تدفع بالشخص نحو الشيطان والشرك. إذا وُجّهت هذه المشاعر نحو الخير، وهو هدفها الصحيح، فإنها تقود صاحبها إلى الإيمان، الصفاء، وإلى الله تعالى. أما إذا اتّجهت نحو الشر، فإنها تسوقه إلى الشرك. في الحالة الأولى، سينتظر المؤمنون ثوابهم من الله، وفي الحالة الثانية، وهي التي تتعلّق بإعطاء صفة الألوهية لكيونات من صنع البشر وللأهواء الشخصية، فلن يلاقي الكافرون إلا غضب الله وعذابه.

إن الفئة الثانية من الناس لا تدرك (أو لا تهتم) أن الحب، الحمد، التعظيم، الخوف، التوقير، الثقة، والدعاء يجب أن يُوجّهوا إلى الله، لأن ليس هنالك مصدر آخر ورازق لكل شيء، وليس هناك

مالك حقيقي للقدرة والجمال، العلم والقوة سوى هو تعالى. إذا نسب أحد صفة من هذه الصفات إلى غير الله، فهو يكون قد وقع في الشرك.

سنقوم الآن بتفحص مشاعر الحب، الخوف، والإستعانة لنبيّن كيف أن الفشل في السيطرة على هذه المشاعر باستعمال المنطق، ثم تأسيس حياة المرء على هذه القرارات الخاطئة المتأثرة بهذه المشاعر، قد يؤدي بالإنسان إلى الشرك.

الحب

يُدرِك المؤمنون أنّ بما أن الله هو الذي خلقهم، فهو الوحيد الذي يستحق حبّهم وإخلاصهم. بعد أن أنشأهم من العدم، فقد إستمرّ تعالى بتلبية كل إحتياجات عباده الجسدية والروحية، وبمدّهم بالنعم التي لا تُحصى. والأكثر من ذلك أنّه طالما أن عباده يؤمنون به ويطيعوه، فالله سيجزيهم خير الجزاء من نعمٍ وبركاتٍ في الدنيا والآخرة، بالإضافة إلى ما هو خير من كل ذلك، رضوانه تعالى. فهو يعطي كل هذه الأشياء من دون مقابل، كرحمة وكرم منه. فإذا علمنا كل ذلك، فكيف يُعقل أن يستحق أي فرد من الخلق حب الإنسان وإخلاصه.

إن سبب من أسباب الحب هو الإهتمام والعجب الذي يشعر به الشخص عندما يواجه الصفات الرائعة والجميلة لمحبوبه. وعندما يصبح هذا الإهتمام والعجب متبادلاً بين الطرفين، تتحوّل العلاقة إلى رابط حب قوي. غير أن ما يهمّ هنا هو أن يدرك الشخص لمن ينتمي هذا الجمال والتفوّق في الواقع، ثم ان يوجّه مشاعر الإهتمام والإعجاب في الإتجاه الصحيح، أي الله، مصدر كل الجمال، الروعة، والصفات العليا. فهذه الصفات التي قد تبدو متأصلة في خلقه ليست سوى إنعكاسات لصفاته العليا، وهي في الحقيقة ملك له وحده تعالى. فمتى أقررنا أن الله تتجلى صفاته وقدراته في عباده، فإن أي حب يشعر به المرء لا بد أن يكون لله وحده. فإذا كان ليس هذا هو الحال، فقد وقع الإنسان في خطأ الشرك بالله.

بالتأكيد أن الشعور بالحب ليس خطأً. ولكن الخطأ هو نسيان الله والتعلّق بشغف وتعصب بما هو غيره تعالى أو بترك الأمور التي ترضيه تعالى. عندما ينظر الإنسان بعين الإيمان، فإن كل الجمال الذي عند البشر يراه على أنه ملك لله. إن الذين يدركون ذلك سيتوجّهون له تعالى و هم يعون أنهم بحبهم للأشخاص الآخرين، فهم في الواقع يحبّون الله. أما حب المشركين، فهو مختلف:

{وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ} (العنكبوت: ٢٥)

إن رابط الحب هذا سيتحوّل إلى كراهية ورفض مشترك، لأن هذه الأوثان التي تتعلّق بها الناس عبر الروابط العاطفية ستعود عليهم بالعذاب في الآخرة. لا أحد يتّخذ من الله إلهاً وحيداً له يستطيع أن يحبّ أي شيء أو شخص أكثر مما يحب الله. أما بالنسبة إلى المشركين، فيقول القرآن:

{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ} (البقرة: ١٦٥)

إن المؤمنون يوجّهون حبّهم كله إلى الله، لأن عدم فعل ذلك يعني أنهم ليسوا صادقين في إيمانهم أو إن علمهم بالله والإسلام ناقص. في الواقع، فإن الذين يجعلون لله الشركاء لديهم فهم خاطئ عنه تعالى. مع عدم قدرتهم على تأسيس علاقة قريبة مع الله وتقديره حق قدره، فإنهم يوجّهون حبهم نحو غيره.

من الجيّد هنا أن نركّز على العلاقة بين الرجل والإمرأة، وهو الشكل الأكثر وضوحاً ومشاهدةً للحب الذي ينتج عنه الشرك. في هذه العلاقات، فإن أي حبٍ وتعلّقٍ بالآخر مبني بشكل مستقل عن رضوان الله هو سبب كبير للانحراف نحو الشرك. فلذلك نرى أن هذه العلاقات مبنية على ما يُعرف بالرومانتيكية، العاطفة، الأحاسيس، والفائدة المشتركة، لأن الشخص هنا يبحث عن إرضاء الشريك. ومن دون أي تردد بالنسبة إلى التعدّي على الحدود التي وضعها الله للناس، في سبيل إسعاد أنفسهم، يوجّه كل شخص من أصحاب هذه العلاقة كل الحب الذي منحه إياه الله إلى شريكه، وعاجلاً أم آجلاً ينسون الله. والنتيجة أشخاص يؤدّون واجباتهم تجاه بعضهم البعض، ينسون واجبات الله ويرى الواحد الآخر على أنه مستقل عن الله تعالى. يصف القرآن هذا العلاقات على أنّها عبادة متبادلة وتألّيه للشخص الآخر.

يذكر القرآن حب النساء المملوء شهوةً وشغفاً الذي نجده في هذه العلاقات. فإذا كان هذا الحب يتسبب في نسيان الإنسان لربه وعدم ذكره كما ينبغي، أو إذا كان الشخص يفضّل حب النساء على حب الله، فاستحوذ هذا الحب على قلبه الذي أصبح فارغاً من حب الله، فإنه في هذه الحال

سيتحوّل مع الوقت إلى الشرك. وذلك كلّه ينطبق أيضاً على الأنثى في هذه العلاقة. ويخبرنا القرآن أن هذا الحب الذي يعتبره المجتمع " بريئاً "، في الواقع لا يرضي الله تعالى. إن المجتمع يسمّي هذا النوع " الشركي " من الحب " الحب الحقيقي "، " الحب الرومنسي "، و " الإحساس النقي "، وهو حتّى يُثني على هذا الحب ويشجّعه. بما أن هذه الحملة الدعائية "الرومنسية" تعوق التطوّر الذهني والعقلي للأشخاص الناشئين، فإننا نلاحظ ظهور الأجيال الغافلة عن الدّين، الإيمان، وسبب وجودهم. بما أنّهم لم يعرفوا الله، فهم لا يشعرون بأي حب، ورع، أو توقير له تعالى. بالنسبة لهم، الشرك هو شكل طبيعي من التصرف، و أسلوب حياة مقبول. بالتأكيد أن باستطاعة الناس أن يحبوا وأن يشعروا بالعاطفة تجاه بعضهم البعض، ولكن ليس بطريقة مستقلة عن الله.

إن الحب الذي يشعر به المؤمنون هو حبّ شفاف، مشع يبعث الطمأنينة في القلب، لأنه موجّه إلى الله. فهم يحبّون الآخرين لأنهم ليسوا إلا تجلّيات من الله. ولهذا نجد أن المؤمنون لا يحزنون كثيراً عندما يموت أحد أحبّابهم أو عندما يخسرون شيئاً عزيزاً على قلبهم. فهم يعتبرون أن كل الجمال الروحي والجسدي في المحبوب هو في الواقع ملك لله الذي هو أقرب إليهم من جبل الوريد، فهذه الخسارة ليست إلا إسترجاع لإحدى تجلياته تعالى بهدف إختبار هذا الشخص. فطالما أن هذا الشخص ثابت على الإيمان والفهم، فإن الله سيستمر بالتجلي بأحلى صفاته. بما أن المؤمنين الذين يملكون الإيمان الصحيح مدركون لهذه الحقيقة، فإنهم منيعون لكل أشكال الأذى والحزن:

{إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} (الأحقاف: ١٣)

أما المشركون، فهم يعانون في قلوبهم من آلام الفراق حين يموت الشخص الذي أحبّوه وكرّسوا أنفسهم من أجله. فكل إنسان أو شيء فضّلوه على الله تعالى وجعلوه ندّاً له سيكون مصدر عذاب لهم في الدنيا والآخرة. إن هذا الأمر يشكّل موضوعاً لكثير من الأغاني، القصائد، الروايات، والأفلام، التي هي أكثرها مكرّسة لمواضيع مثل الفراق، الخيانة، الهجر، الحب الغير متبادل، الموت، الألم، والعذاب الذي ينتج عن كل ذلك.

فآلام هؤلاء التي تبدأ في هذه الدنيا سوف تستمرّ في الآخرة، وبشكل أشدّ وأقوى من الناحية الروحية والجسديّة. ويذكر القرآن النار التي تظّل على القلوب. (الهمزة: ٧-٥) فكل شكل من أشكال ألم القلوب في هذه الدنيا يمثّل جزء يسير من العذاب الأكبر الذي سيلاقيه المشركون في جهنّم. فالله ينتقم في الدنيا وفي الآخرة من الذين خانوه وجعلوا له الشركاء من دون علم.

عامل آخر يقود الناس إلى الشرك هو الخوف. ذلك الشعور، الذي من المفترض أن يوجّه فقط إلى الله، عندما يوجّه نحو أحد من عباده، ويؤثر على موقف الشخص وتصرفاته، فإن هذا الشعور يصبح في خانة الشرك. يعلم المؤمنون أن الله هو وحده الذي يستحق أن يخافوا منه ويوقّروه. فهو القوي العزيز، بيده كل الأمور، وهو الذي أخضع كل شيء لإرادته. فلا شيء يستطيع أن يضرّ الإنسان بغير إذنه تعالى، وهو فقط يستطيع أن يكشف الضرّ. إن الخوف من أية جهة غير الله يعني أن الإنسان يعتقد أن هذه الجهة لها وجود مستقل عن الله وأنها خارج نطاق سيطرته:

{وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيتَايَ فَارْهَبُونِ (٥١) وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢)} (النحل: ٥٢-٥١)

{أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ {
(الزمر: ٣٦)}

كما تؤكّد لنا هذه الآيات، فإن المشركين يخافون من الناس وحتّى من المؤمنين بدلاً من أن يخافوا من الله، وهذا شعور منحرف سببه قلة الفهم لديهم:

{لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ} (الحشر: ١٣)

الإستعانة والتوكل

كل كائن دون الله هو فقط خلق من خلقه يوجد فقط لأن الله أراد ذلك، وهو حيّ لأن الله يمده بما يلزم من الرزق وأسباب البقاء. بإختصار، فإن كل شيء باستثنائه تعالى، هو عاجز، فقير، محتاج، ولا يملك أية قوّة أو قدرة خاصة به. أذاً، باستثناء الله، فلا يوجد شيء نتوكل عليه أو نستعين به. إن رفض هذه الحقيقة والتوكل على الأسباب، الوسائل، والأشخاص، يعني نسبة الإستقلالية والقدرة الذاتية لهم، وبإختصار، فإن ذلك شرك:

{وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ (٧٤) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُخَضَّرُونَ (٧٥)} (يس:٧٤-٧٥)

لقد حذر النبي محمد (ص) أصحابه من طلب العون من غير الله تعالى. يقوله (ص): إذا سألت فاسأل الله.

يخبرنا القرآن أن المشركين سرعان ما يتحولون إلى عبيد للأوهام التي خلقوها. فبنسيانهم لله وسعيهم لإرضاء خلقه، لحماية أنفسهم كما يعتقدون، فهم يعيشون حياتهم في حقارة وذل، في سبيل إرضاء هذه الأصنام. غير أن هذه الأصنام ستخيّب كل الآمال التي يضعها هؤلاء فيها. وهذا جزء يسير من الخزي الذي يلاقوه جرّاء انحرافهم عن منهج الله. يصف الله عدم الجدوى في اتباع الناس لآلهة ابتدعوها:

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ} (الحج:٧٣)

هنا أيضاً نرى عجز هذه الآلهة:

{أَيُّشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٢)} (الإعراف:١٩١-١٩٢)

{وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ} (الأعراف: ١٩٧)

ولكن بالرغم من كل ذلك، يستمرّ الناس في التوجّه والتوسل بالدعاء إلى هذه الأصنام. أما بالنسبة إلى مصيرهم، فيخبرنا القرآن:

{فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ} (الشورى: ٢١٣)

تطلعنا سورة الكهف على قصة الرجل صاحب الحديقة الرائعة، التي ملئت بالنخل والتمر، والذي لقي الخزي والعذاب في هذه الدنيا. فقد كان شديد الفخر بحديقته وما يملك، وادّعى أن هذه الأشياء ستدوم له ولن تفتنى أبداً وأن يوم الحساب لن يأتي. ولكن حين أنزل الله به العقاب وأصبحت هذه الحديقة الرائعة خاوية على عروشها، أدرك فداحة خطأه بجعله الشركاء لله:

{وَأَحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا (٤٣)} (الكهف: ٤٢-٤٣)

أن الذين يعلّقون آمالهم على غير الله، الذين يضعون ثقتهم في غيره تعالى، وأيضاً يسعون إلى إرضاء غيره، فهؤلاء لن يبلغوا مبتغاهم. ولذا، فإنهم دوماً يشعرون بالفراغ، الوحدة، وبأنهم مهجورون، وخاصة في الأوقات الصعبة:

{لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعَدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا} (الإسراء: ٢٢)

ونرى في القرآن مثلاً رائعاً لوصف حالهم هذا:

{ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعِظْمِ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأَجَلْتُ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَظَفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَىٰ بِهِ الدَّيْحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١)} (الحج: ٣١-٣٠)

في المقابل، المؤمنون الذين يضعون ثقتهم ويعتمدون على الله وحده، الذين يفرّدونه في العبادة ويطلبون منه المعونة، يعيشين حياتهم متمتعين بالنعمة، الإحترام، والإعتزاز: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ...} (سورة الرعد: ٢٨). عندما يكون قلب الإنسان مطمئن بذكر الله، فإنه لا يحتاج إلى أي شيء آخر، حتى عندما يواجه صعوبات كثيرة. فهم مكّرمين كالنبي يعقوب (ع) الذي قال: {..إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} (يوسف: ٨٦). وهذا الموقف يعود إلى فهم المؤمنين الصحيح للقدر:

{قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} (التوبة: ٥١)

عندما يجتمع الحب، التوكل، والرجاء في قلب المؤمن، فالذي نحصل عليه هو الولاية من الله التي وصفت في القرآن الكريم والتي تتمثل بالموّدة والنصرة منه تعالى:

{إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} (التوبة: ١١٦)

بما أن الله هو الوحيد الذي يملك القوة الحقيقية، فكل شيء إذاً يعتمد عليه تعالى:

{قُلْ أَعْيَرَ اللَّهُ اتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعَمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} (الأنعام: ١٤)

غير أن إحدى أهم الصفات لدى المشركين هي إصرارهم على إتخاذ أولياء من دون الله، مع أن التولي عن الله وإتخاذ عباده أولياء يمثل إثماً عظيماً يجرّ العواقب الوخيمة:

{أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا} (الكهف: ١٠٢)

بينما يتخذ المؤمنون الله وحده ولياً لهم، فإن الكافرون والمشركون ينظرون إلى الشيطان على أنه وليهم. بطاعتهم لأوامره، فهم يستهزئون بالقرآن الكريم والحدود التي وضعها الله تعالى لخير البشر، يتعمّدون جعل الشركاء له، لا يذكرونه، ويظهرون ولائهم وإنتمائهم للشيطان. هذا التصرف اللا عقلاي يؤدي بصاحبه إلى أسوأ خاتمة:

{كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ} (الحج: ٤)

الشعور بالإمتنان

يلقى الناس جميع أنواع النعم طيلة حياتهم. وبما أن أكثر هذه النعم قد تُردّ إلى مختلف الأسباب، فإن من الطبيعة البشريّة توجيه الشكر والإمتنان إلى تلك الأسباب بدلاً من توجيهها نحو الله تعالى. يستخدم القرآن عبارة " الشكر " لوصف هذا الشعور بالإمتنان. غير أن على الجميع أن يعلم أنه مهما كانت هذه الوسائل والأسباب، فإن عليهم أن يدركوا أن الله هو وحده الذي يمدّ بالنعم وأن لا يتوكّلوا إلا عليه تعالى. إذًا، فهذه العبارة (أي الشكر)، تدلّ على إقرار نابع من قلب الشخص ولسانه، لإمتنان هذا الشخص لله والإعتراف بفضلته عليه.

فالشكر والإمتنان لله هما دليل على العبودية الصادقة:

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ } (سورة البقرة: ١٧٢)

{ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ } (سورة النحل: ١١٤)

كما تظهر لنا هذه الآيات، فإن التوجّه بالشكر لله هو شرط أساسي وبرهان على صدق الإنسان في عبادته لله تعالى. فهذا التصرف يدلّ على أن ذلك الشخص مدرك تماماً أن الله هو وحده الرزاق وأنه على كل شيء وكيل. إن فهم ذلك يعني أن الشخص يعلم تماماً أن القوة، القدرة، والسلطان لله وحده. إذًا، فإن إيمان هذا الأنسان سليم، وهذا الشخص يجسّد مثال الإنسان المؤمن والشكور الذي وُصفه الله في القرآن وأثنى عليه، وهو قد نجح في تحقيق شرط مهم من شروط الإيمان الصحيح.

أما المشركون، فهم ينسبون النعم التي يتمتّعون بها إلى الأسباب والآلهة التي إبتدعوها، وضعوا آمالهم فيها، و وجّهوا إمتنانهم إليها. بإتخاذهم هذه الآلهة العاجزة، فإنهم يتعامون عن حقيقة أن الله هو خالق هذه الأسباب والجهات التي يألّونها، وجعلها تبدو وكأنّها جهات مستقلة بجعل إعمالها تحدث. فمن الشرك وعدم الإمتنان نسيان الله، التوجه إلى عباده بإعتبارهم يملكون القوة والتأثير، ثم التوجّه إليهم بالشكر.

إن ذلك لا يعني أنه من الخطأ أن يشكر الناس بعضهم بعضاً، طالما أنهم يذكرون أن الله هو الذي ييسّر لهم هذه الأرزاق، النعم والحاجات، ويتصرّفون وفق هذه القناعة. أما المشركون فهم يقومون بالتسويات والتنازلات لصالح آلهتهم على حساب الإيمان ورضوان الله تعالى:

{إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} (العنكبوت: ١٧)

بخلاف المشركين، فإن المؤمنين يشكرون الله وحده ويشعرون بالإمتنان له وحده. فهم يتوجهون إليه عندما يحصلون على النعم، يشكروه، ويدركون أن ما يحصلون عليه هو من من الله عليهم. ولناخذ كمثال على ذلك عندما جعل تعالى زكريا كفيلاً على مريم :

{فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقُبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا تَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكْرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لِكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} (آل عمران: ٣٧)

من الواضح أن مريم (ر) كانت مدركة أن كل النعم الممنوحة لها كانت من الله. ومثل آخر هو توجه النبي سليمان (ع) إلى الله تعالى :

{قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ} (النمل: ٣٨-٤٠)

حتى بعد حصوله على مبتغاه بشكل سريع، فقد توجه سليمان فوراً إلى الله وقام شكره أولاً بدلاً من الذي أحضر له العرش. وهكذا يجب أن يكون تصرف المؤمنين ، فالذين ينسون الله يضعون آمالهم في الوسائل والأسباب معتقدين أن النعم والإرزاق تأتي منها. فإي شخص يفكر بهذه الطريقة يكون قد جعل الشركاء لله تعالى.

أن الشرك بالله وتقديم الشكر له هما عملان متناقضان . يقول الله تعالى عن إبراهيم (ع):

{إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لَأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٢١)} (النحل: ١٢١-١٢٠)

كما رأينا، فإن الإمتنان يصحبه الإيمان والإخلاص عندما يوجه نحو الله تعالى، ويصحبه الشرك في حال ووجه نحو غيره. إن الشكر على النعم مهم جداً، ولذا، فإن من أهم أهداف الشيطان جعل الناس غير شكورين. يخبرنا القرآن عن ذلك على لسان الشيطان نفسه :

{قَالَ فِيمَا أَعْوَيْتَنِي لَأُفْعِدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَا تَبْتِغُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧)} (الأعراف: ١٧-١٦)

لقد نظرنا حتى الآن إلى بعض المشاعر التي تسوق الناس إلى الشرك. بينما تشكل تلك أهم المشاعر، فهناك بعض المشاعر الأخرى مثل الحزن، الطيبة، والكرهية. فمثلاً، لتتخيل شخص ما يحزن جداً ويتألم كثيراً بسبب موت ابنه الصغير أو حيوانه الأليف. هذا الحزن المصحوب بالألم قد يقود هذا الشخص إلى التمرد على الله والشرك به. ولكن لو لجأ هذا الشخص إلى المنطق وفكّر بتجرّد من الحزن الشديد والعاطفة، فسيرى الحقيقة بطريقة واضحة وشفافة. فمن وجهة النظر الإيمانية، الموت يشكل خلاصاً بالنسبة إلى الأطفال، المؤمنين، والحيوانات البريئة، وانتقال إلى دار الخلود وحياة رائعة. وهو باب يعبر منه الناس إلى حضرة الله تعالى. أما من وجهة نظر الشيطان وأتباعه، فالموت هو الوقت الذي تنتهي فيه الرغبات والشهوات، والوقت الذي يُفتح فيه باب العذاب الأبدي الموعود. إذًا، فالشيطان يرى الموت على أنه شيء فظيع ويسعى إلى جعل الآخرين يرونه بنفس الطريقة. وهذا التحليل صحيح من موقعه، ولكنّه لا ينطبق على المؤمنين الصادقين. فالنسبة لهم فإن الموت يأتي معه الجنة والسعادة.

متى إستخدم الشخص المنطق وارتقى فوق مشاعره وأحاسيسه، فسيرى الحقائق بوضوح ويتصرّف وفقاً لها. فالأمور التي تبدو للأشخاص العاطفيين ذوي العقل المشوّش بالغة التعقيد، لا حل لها ولا تفسير، قد تبدو سهلة، واضحة، وبسيطة للمؤمنين. إن الأشخاص الذين جرفتهم مشاعرهم وأحاسيسهم تركوا المنطق والعقل ورائهم ليكملوا طريقهم نحو العذاب الأبدي بسبب مستنقع الشرك الذي أغرقوا أنفسهم فيه، وتسليم إرادتهم للشيطان.

الشرك الخفي

حتى الآن، تكلمنا عن الشرك في معناه العام، أسبابه، كيف ينشأ، والأشكال التي يتخذها. في هذا الفصل، سننظر إلى نوع أخطر من الشرك: الشرك الخفي. لقد حدّر نبينا الكريم (ص) المؤمنين من هذا النوع من الشرك، وأعطى كمثال على هذا الشرك الخطير الرياء، وهو حين يراعي الإنسان بأعماله. عن محمود ابن لبيد:

خرج النبي (ص) مرّة فقال: "أيها الناس"، إحدروا الشرك الخفي! فسأل الناس، "يا رسول الله، وما الشرك الخفي؟" فقال، "عندما يقوم الرجل للصلاة ويسعى لتجميل صلاته لأن الناس ينظرون إليه، هذا هو الشرك الخفي" (جمعه ابن خزيمة)
عن أبو موسى:

خطب فينا رسول الله يوماً قائلاً "أيها الناس، إحدروا الشرك فإنه أخفى من دب النمل على الأرض". فسأل من شاء الله أن يسأل، "وكيف نتجنبه وهو أخفى من دب النمل، يا رسول الله؟ فردّ (ص) قائلاً "قولوا اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك ما نعلم ونسألك أن تغفر لنا ما لا نعلم" (جمعه أحمد والطبراني)

بالرغم من تمكن الناس من إجتناج جميع أنواع الشرك التي ذكرناها سابقاً، إلا أن عليهم أن يظلوا متيقظين من خداع الذات. فإذا أرادوا أن يصلوا إلى الإيمان "الكامل"، فعليهم أن يهتموا بهذا الموضوع ويجتنبوا الإعتزاز بأنفسهم:

{مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} (الروم: ٣١)

{وَيَقُولَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ} (الرعد: ٢٧)

كما توضح لنا هذه الآيات، فقد ألزم الله المؤمنين بالإيمان "الصافي والنقي" وحرّم عليهم الشرك. وفي نفس الوقت، فقد أبلغهم أنه تعالى سيهدي من ينيب إليه إلى الصراط المستقيم. بكلام آخر، من شاء الهداية من الله، فعليه تجنب جميع أنواع الشرك وأن يجعل الله مبتغاه. ولكن ماذا يعني هذا حقاً؟

ما يعنيه ذلك هو أن يجعل الشخص من الله وليّه ونصيره الوحيد، ويسعى إلى إرضائه وحده، ولا يعتمد إلا على رحمته تعالى. فمبتغى الإنسان الوحيد هو أن ينال حب الله ورضوانه. ولهذا السبب، فعلى هذا الشخص أن يعيش وفقاً لشروط الله، وأوامره ونواهيه. أمّا إرضاء الآخرين ونيل موافقتهم وإستحسانهم، فهو يأتي في المرتبة الثانية بالنسبة إلى هذا الشخص، فهو لا يطلب شيئاً من هذه الدنيا إلا أن يكون وليّاً لله تعالى وينال رضوانه. كل إنسان مؤمن يقرأ هذه الكلمات قد يعتقد أنه يملك هذه الصفات. ولكن بدلاً من الثقة الزائدة بنفسه، فعليه أن يتأمّل مطولاً وبعمق في هذا الموضوع وأن يسعى دوماً إلى تحسين نفسه.

إن الذين يكرّسون أنفسهم كلياً لله تعالى يتوكلون عليه وحده، لأنّهم يعلمون أنه هو وحده الوكيل على كل شيء. إذًا، فلا حاجة لهم بدعاء من هم دونه. إن الذين لديهم هذا التوكل لا يخافون ولا يحزنون، ولا يزعجهم أي شيء قد يلاقوه في حياتهم. مدركين أن الله يختبرهم في كل الأمور، فهم يقبلون هذا ويلجأون إليه تعالى. وبتوقيرهم لربوبيّته تعالى، فهم يشعرون بالرضى بما قدر لهم بحكمته. ففي يعلمون جيداً أنه يوجد خير كثير في كل الإختبارات التي يمرون بها:

{كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ
شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} (البقرة: ٢١٦)

إذًا، فالمؤمنون حقا لا ينحرفون عندما يواجهون الأحداث والمواقف التي قد يعتبرها الكافرون خطيرة وفضيعة. فهم يثبتون في توكلهم على الله، لأنهم لو شككوا في ربهم ولو للحظات فهذا يعني أن ثقتهم بالله ناقصة، وأنهم قد أخفقوا في تقدير قدرته وحكمته تعالى. وهذا يمثل إقتراباً من الشرك، وهو شيء ليس للمؤمن فيه عذر.

وهنا قد يظهر الشرك الخفي كخطر عظيم. فمثلاً، من الخطأ جداً للذين يجدون أنفسهم في وضع صعب أن يقول في نفسه: "إني عموماً شخص مؤمن ومسلّم، ولدي توكل كامل على الله، غير أنّه قد يصيبني الخوف في بعض الأحيان فتتزعزع ثقتي بالله وتسليمي له". إن خداع الذات أمر خطير جداً في هذه الحالات. من الواضح أن من يتبع هذا المنطق ليس لديه توكل حقيقي على الله. فحتى لو أقرّ هؤلاء بوجوده تعالى، فإن مجرد التفكير في التسوية فيما يختص بإيمانهم يؤكد نقص في التسليم والتوكل لديهم وإخفاق في فهم قدرة الله وقوّته. وهكذا موقف وتصرف لا نجده إلا بين المشركين.

أما الذين يكرّسون أنفسهم لله فهم يسلمون بصدق للقدر الذي كتبه لهم، فهم يعلمون أنه لا يمكن تغييره بأي حال. ويقول الله أن كل ما نختبره مكتوب في اللوح المحفوظ وأننا لا نختبر إلا ما كتب تعالى:

{وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ
وَمَا يَغْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ
مُبِينٍ} (يونس : ٦١)

بكلام آخر، فإن كل حدث في حياة الإنسان، من دون إستثناء، مكتوب في الكتاب. كونهم مدركين لذلك، فإن المؤمنون يقيّمون ما يحدث لهم وفقاً لهذا الإدراك، يبحثون عن الجمال في تفاصيل قدرهم، ويتجنّبون بذلك خطأ الندم، عدم الرضا والحزن. من دون إستثناء، فالمؤمنون راضون في كل وقت من حياتهم.

أما إذا لم يكن الحال كذلك، فهذا يعني أن إيمان الشخص ضعيف وأنه واقع في الشرك. بالرغم من قول بعض الناس أنهم يؤمنون بالله و باليوم الآخر، وأنهم مسلمون، إلا أنهم ليسوا راضين بالعيش بالتسليم والتوكل الذي أمر به القرآن. هذا الإخفاق في فهم المعنى الحقيقي للقدر هو إشارة إلى الشرك الخفي.

إذاً، فمشاعر الشخص وردات فعله تجاه الأحداث تمثل أهميّة بالغة. فعلى جميع الأشخاص الذين يعتبرون أنفسهم مؤمنين حقاً أن يعيدوا التفكير في حياتهم بأكملها، طريقة عيشهم يوماً بيوم، أحاسيسهم، أفكارهم، مشاعرهم، نظرتهم إلى الحياة، وأهم شيء، عقلهم الباطني لبحثوا عن أي ضعف أو خلل في إيمانهم.

قد يكون الشرك في بعض الأحيان متجذراً في حياة الإنسان. فالخوف مثلاً قد يمنع الناس من العيش مع إيمان خالص. في الواقع، فهم عالقين بإهتمامات ومشاكل تتعلّق بالمستقبل لدرجة أنهم يبدأون بنسيان أوامر الله ونواهيته في سبيل تأمين مستقبلهم. إن تصرفهم هذا يتضمن القيام بتنازلات ضرورية بالنسبة إلى الدين. أو أنهم حتى قد ينظرون إلى هذه المصاعب على أنها غير مرحّب بها ويثورون على الله تعالى. وهنا ينسى معظم الناس قدرة الله وسلطانه ويقعون في الشرك الخفي. فنسيانهم أن الله وحده هو الذي بيده مستقبلهم، يرزقهم ما يملكون، ويمحي الصعوبات من حياتهم، فهم يسعون إلى المعونة من جهات أخرى.

على كل شخص أن يتجنّب بقوة هذا التصرف الخاطيء، وبحال وجد نفسه في هكذا موقف، أن يتركه فوراً. فعليه أن ينظر إلى وضعه من وجهة النظر القرآنيّة، أي يتذكر أن الله على كل شيء قدير وأنه تعالى ربّ كل شيء.

فإذا أصاب أحد الأشخاص مرض خبيث أو شلل دائم في حادث ما، فإن كان يعتبر نفسه مؤمن صادق وحقوقي، فهو لن يشعر بالحزن الشديد أو القلق، في الواقع، فإنه لن يشتكي حتى من هذه الصعوبات، بل إنه سيستقبل هذا الوضع الجديد بالتسليم والرضى، على علم منه أن هذا ما قدره الله له، وأنه إذا صبر على ما أصابه، فسينال الثواب العظيم في الآخرة. فالمؤمنين الصادقين يتحملون كل أنواع المصاعب برضى وينظرون إلى الخير والحكمة من وراءها. وهم لا يفعلون ذلك لمواساة أنفسهم، بل لأنهم يوقنون أن الخير موجود في هذه الصعوبات. بإدراكهم لحقيقة أن الله قدر مصيرهم وأن كل ما يحدث يحدث لحكمة ما، فهم يتأملون في أمور حياتهم، و يبقون على صبرهم وثباتهم في كل الأوقات.

كل شخص قد يختبر أحداث غير متوقعة في أي وقت، كأن يُظلم أو يُفترى عليه الكذب، أو أن يُعتدى عليه شفهياً أو جسدياً. ولكن من كان بريئاً من الشرك الخفي أو الظاهر لا ينسى قدره ولا يصبح أبداً فريسة لمشاعره وأحزانه، ولا يقلقه شيء. فهو يتذكر دوماً أن الله على كل شيء وكيل وأن أي شيء يصيبه هو في دائرة قدره الله تعالى له. فنجده يقابل الشر بالخير، كما يأمر القرآن. قد يمر المؤمنون عبر أحداث قد تشكل رعباً حقيقياً بالنسبة للكافرين، ولكنها تبدو عادية بالنسبة لهم. فالمؤمنون الصادقون لا يشعرون بالخوف ولا بالقلق، لأنهم وضعوا كامل ثقتهم بالله. ففي حال فقدوا عائلتهم مثلاً وكل ما يملكون في وقت واحد، فهم يثبتون على تسليمهم وخضوعهم لله تعالى في كل وقت. وفي وجه ما قد يعتبره الكافرون مصيبة، فإن إيمانهم، خضوعهم، تسليمهم، وتوكلهم على الله لا يتزعزع. فهم لن يصيبهم الحزن أو يتحولوا إلى ضحايا تشاؤمهم، حزنهم، ويأسهم. على الناس أن يفكروا بصدق في كيفية تصرفهم في مواقف كالتي ذكرناها، ومن ثم إتخاذ التدابير اللازمة لتجنب الوقوع في الشرك الخفي. فإن الاعتقاد كما يفعل الكثيرون أن "ذلك شيء بسيط لا يضر"، معتبرين ردود فعلهم الجاهلة والخطأئة خلال الأوضاع الصعبة أمر طبيعي وبسيط، أو الإرتكاز بردات فعلهم على ردّات فعل الآخرين قد يقود أيضاً الشرك الخفي :

{وَإِنْ تُطِغْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ}

(الأنعام: ١١٦)

عامل آخر قد يقود الناس إلى الشرك هو الاعتقاد بأن شخص ما ناجح بسبب مجهوده الخاص. فمن الخطأ الجسيم لمن يقوم مثلاً بخطاب ما، نسبة خطابه الناجح إلى نفسه ومنطقه وذكاءه، فالله فقط هو الذي أراد لهذا الشخص أن يقدم ذلك الخطاب. أو بحال كان شخص ما ناجح،

يقوم بالإكتشافات العلمية، أو يخترع أشياءً لتسهيل الحياة على الناس، فكل ما يعنيه ذلك هو أن الله شاء ذلك في قدر هذا الإنسان. لا يستطيع الناس أن يكونوا السبب في نجاحهم، فالتصديق بذلك، ومن ثم التفاخر بإنجازاتهم يعني نسيانهم لربهم :

{وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} (الإنسان: ٣٠)

على الناس حين يمدّون بالمحن والأمر السلبية (مصائب وكوارث، أمراض، إصابات) أن يتذكروا أن هذه الأمور كلها هي جزء من قدرهم. فلا يجب أن تعزى هذه المصائب إلى سائق متهور مثلاً، لأن هذا يعني عدم فهمهم لحقائق الإيمان. بالتأكيد فإن الله خلق مختلف الأسباب التي تُعزى هذه الأمور لها، ولكن كل هذه الأسباب هي تحت سيطرة الله وعلمه. فالذين يعلمون هذه الحقائق قد عرفوا جيداً قدره تعالى. أما الآخريين الذين يرفضون تقبّل ذلك، فهم قد سقطوا في الشرك الخفي. فمع أن مرض شخص ما مثلاً سببه جرثومة، إلا أن الله هو الذي خلق هذه الجرثومة وجعلها تؤدي وظيفتها وهدفها الذي يتمثل في إمرض ذلك الشخص وذلك تحقيقاً لقدره. ويعطينا تعالى مثلاً للصعوبة التي واجهها المؤمنون على زمن الرسول (ص):

{وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧)} (آل عمران: ١٦٧-١٦٦)

بمعنى آخر، فيما أن كل الأحداث تحدث بمشيئة الله، فليس هنالك سبب منطقي للغفلة عن واقع أن كل شيء ضمن إرادته وسيطرته تعالى. فيما أنه العليم، فكل دقيقة من حياة الشخص تحدث لأنه تعالى شاء ذلك. لا يهم كيف قد يبدو حدث ما، ولكنه يحمل دائماً حكمة كبيرة معه. ولكن الناس، مؤمنون وغير مؤمنين قد لا يفهمون دوماً الحكم من وراء بعض الأحداث. فأحياناً قد يتمكنوا من فهمها، فيشكرون الله، وأحياناً أخرى قد لا يكون ذلك في مقدورهم ذلك إلا أنهم يحافظون على ثقتهم بربهم، لعلمهم أنه يخلق كل شيء لخير وحكمة.

منطق " ألقيل من الإيمان والقليل من الشرك " هو خطأ كبير

أن الشرك الخفي يمثل خداع خطير للذات مصدره تبني المنطق الذي يقوم على مبدأ " قليل من الإيمان وقليل من الشرك " و" لا يضر قليل من الشرك مع الإيمان ". يجب على كل المؤمنين أن يكرسوا أنفسهم لله في كل وقت وأن لا يقوموا بالتنازلات والتسويات في هذا الأمر، لأن هذه الأمور هي من المتطلبات الأساسية للإيمان والمنطق. فإذا، عليهم أن لا يعتقدوا بتاتا أن أي شخص أو جهة ما غير الله تملك أي قوة أو قدرة حقيقيّة. ويؤكد القرآن على هذه الحقيقة كالتالي :

{قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ أَلِللهِ حَيْدٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ يَدَاتٍ بِهَجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَيْلَهُ مَعَ اللّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَيْلَهُ مَعَ اللّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَيْلَهُ مَعَ اللّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَيْلَهُ مَعَ اللّهِ تَعَالَى اللّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَيْلَهُ مَعَ اللّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦٤)} (النمل: ٦٤-٥٩)

كما نرى من الآيات السابقة، فإن كل ما يحدث يحدث فقط لأن الله أراد له الحدوث. إن نسيان هذا الواقع والإعتقاد أن أي شيء يحدث بطريقة مستقلة عن الله هو في الحقيقة شرك به تعالى. أن الشرك الخفي هو العائق الأصعب أمام تحوّل إيمان المرء إلى إيمان صحيح وحقيقي. فإن الشخص لا يكون مؤمناً حقاً إلى إذا كان إيمانه نقي من كل شائبة. فالبحث عن حلٍ وسط، أو التخيّل أن أي جهة تملك قوة أو سلطان حقيقي هو من الشرك. إن التظاهر بعدم فهم هذه الحقيقة لا جدوى منه وليس إلا خداعاً للنفس. إن الأمور التي تُناقش هنا هي وقائع يجب على المسلمين أن يتفكروا فيها ويعملوا بجهد ليحقّقوها في حياتهم في أسرع وقت ممكن. إن إعتقاد الشخص بأنه منيع ضد هذا الخطر وأنه بالإمكان العيش "كنصف مسلم" هو ليس فقط شيء غير منطقي، ولكنه السبب لحياة مضطربة ومتعبّة. على الناس أن يقيسوا رغباتهم في الدنيا وفق الشريعة، وأن يكتشفوا أخطاءهم ثم يقومون بتصحيحها. فلا أحد يعلم متى يموت ويُدعى إلى الحساب. قد لا يعاني الناس من ضرر كبير إذا قاموا بتأجيل أمور أخرى. غير أن عدم إيجاد الحل الصحيح لهذا الأمر الأساسي يشكل خطراً وخطأ كبيرين، كونه أمر بالغ الأهميّة. فالشرك هو الخط الفاصل بين

الإيمان والشرك، والشرك الخفي هو السدّ الخادع الذي يمنع الناس من رؤية الحقيقة، **يغبش** منطقتهم ورؤيتهم، يدفعهم إلى نسيان سبب وجودهم، ويقودهم إلى الغفلة عن يوم الحساب. فما أن يعي الناس أنهم قد سقطوا في الشرك، فمن السهل أن يحرروا أنفسهم. فكل ما عليهم فعله هو أن يقدروا الله الذي هو خالقهم، حقّ قدره. فمن يعتقد بأن فعل ذلك أمر صعب فهو مخطيء ومتوهم. في الواقع، فإن هذا التصرف يعكس صدقهم وإخلاصهم. فالله لا يريد إلا شيئين إثنين من المؤمنين: إخلاص كامل له وحده وإيمان متكامل به بصفته مالك القوة والسلطان الحقيقيين.

أن من يملكون هذه الصفات لن يلاقوا إلا الفلاح، السرور، والنعم من الله تعالى حين يرجعون إليه لا يشركون به شيئاً:

{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} (النور: ٥٥)

إن حالة المؤمنين في الآخرة تصفها هذه الآية:

{إِنَّ الْمُتَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (١٤٦)} (النساء: ١٤٥-١٤٦)

كسر الأصنام

يمثل الشرك أسلوب عيش شائع في المجتمعات التي لا تعرف الدين الصحيح. بغفلتهم عن الله، فإن هؤلاء الناس يتبنون آلهة مجتمعهم وبالتالي يشركون بالله من دون أي تردد. ونتيجة لذلك، فإن معظم الناس لا يظنون أن أعمالهم تمثل عصياناً على الله وأنه تعالى سيعاقبهم على جهلهم العقائدي. والأكثر من ذلك، فهم ينظرون بإزدراء إلى من يدعوهم إلى الإسلام وترك ما أشركوا بالله. في الواقع، فإنهم يجدون ذلك عجيب وغير مفهوم.

لقد تصرف المشركون في عهد رسولنا الكريم (ص) بنفس الطريقة. فقد آمن هؤلاء بوجود الله ولكنهم قسموا أمورهم وشؤونهم بين آلهة متعددة أخرى. التجارة، الحب، الحرب، الزراعة- كل له إلهه الخاص. فهذا النظام "الشركي" بدا طبيعياً ومنطقياً بالكامل لهم، ولذلك، فقد تعجبوا عندما رفض الرسول (ص) هذه الآلهة ودعاهم ليؤمنوا بالله وحده:

{وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجَعَلَ الْإِلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥) وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ (٧)} (ص: ٧-٤)

إن إعلان الرسول (ص) أن لا إله إلا الله وأن جميع الآلهة من صنع البشر ليس لها أية قوة، كان إعلان مربك للمشركين. وأحد أهم أسباب هذا الإرباك كان عجزهم عن فهم كيفية عمل نظام مبني على عبادة إله واحد. فمن سينظم تجارتهم ويضبطها إذا هجروا إله التجارة؟ من سيعينهم على أرض المعركة إذا هجروا إله الحرب؟ وإذا لم يكن هنالك إله للزراعة، كيف وممن سيطلبون الماء والزرع الجيد؟ فبسبب عماهم العقائدي، لم يتمكنوا من إدراك أن جميع هذه الآلهة لا قوة لها:

{(١) إِيْلَافٍ قُرَيْشٍ (١) إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤)} (قريش: ٤-١)

إن الناس اليوم يقعون في الخطأ نفسه. كيف، قد يسألون، سيستطيعوا العيش بعد ترك المبادئ والأشخاص الذين يعتبرونهم كآلهة ويعبدون الله وحده؟ إن الجواب بسيط جداً: عليهم أن يدركوا أن الله لديه القدرة لأن يخلقهم، لأن يرزقهم، ينزل رحمته عليهم، يحميهم ويحفظهم. إن مستخدمهم الذي يعملون لديه لا يطعمهم عندما يقوم بدفع مرتبهم، ولكن الله تعالى يفعل ذلك، الذي خلق مستخدمهم وقدر رزقه وجعله يدفع لهؤلاء أجورهم. إن الأحداث لا تحدث بالصدفة، ولكنها تحدث بتدخل رباني متتابع، كل حدث وفق مشيئته تعالى. لقد خلق الله العالم بقدر وقد خضع له الناس كما ذكر لنا في سورة التكويد إلى درجة لا يستطيعون معها أن يشاءوا شيئاً إلا أن يشاء هو سبحانه: {...مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} (سورة هود: ٥٦)

قد يصوّر الشيطان للناس أن التحرّر من الشرك شيء صعب جداً ومعقد، وأن العيش بالتوحيد والإيمان شيء مستحيل. إلا أن هذه الإدعاءات ليست إلا خوف مصدره من قال عن نفسه أنه كذاب:

{وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (إبراهيم : ٢٢)

فإذاً من غير المنطقي للناس الذين يحاولون أن يكونوا مؤمنين صادقين ومخلصين أن يأسوا بسبب وساوس الشيطان وتخويفاته الكاذبة.

إن تغيير صادق في النية يكفي للتحرّر من الشرك، لأن ذلك سيحوّل رؤية الشخص من شركية إلى توحيدية. بكلمات أخرى، لا داعي لتغيير كل الأماكن لكي يراها من يضع النظارات السوداء، فيكفي أن ينزع هذا الشخص نظارته فقط. إن الشرك يسد نور الحقيقة بنفس الشكل. إن نزع النظارة بحركة واحدة هو أمر سهل والطريقة الوحيدة للتحوّل من الشرك إلى الإيمان والصفاء اللذان يحبهما الله. وذلك لا يتضمن أكثر من قرار التوكل عليه تعالى في كل الظروف والإلتزام و التمسك بأوامر القرآن ونواهيها. إن هذا الصدق والتصميم لا شك سيصحبه عون من الله ورحمة، بالإضافة إلى الفلاح في هذه الدنيا وفي الآخرة.

لا يهدي الناس إلى الصراط المستقيم إلا الله تعالى. فمن شاء إذاً أن يفوز برضوانه تعالى فعليه أن يسأله دوماً الهداية، عونه في عيش حياة إخلاص وصدق، واليقن من أنه تعالى سيجيب دعوته. فعليه أن لا يقع في فخ التشاؤم الذي ينصبه الشيطان بتساؤله " كيف سأتمكن من تخطي كل ذلك ؟ كيف سأتوصل إلى الإيمان الخالص والنقي؟ " عوضاً عن ذلك، فعليهم أن يفهموا أن الله سيوجّههم في الإتجاه الصحيح ويحفظهم من كل إنحراف، شرط أن يظهروا الصدق والتصميم. وسييسر لهم تعالى العيش في الطمأنينة والفرح الذان يصحبان هذا الإيمان.

إن الذين يهجرهم آلهتهم المزيفة ويتوجهون إلى الله لن يشعروا أبداً بالفراغ والوحدة، بل على العكس، فإنهم سيبلغون السلام، الراحة، والأمان لأن الله تعالى يقول:

{... ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣) (الطلاق ٣-٢)}

ولذلك، فإن الناس الذين هم مدركون ونادمون أنهم يعيشون وهم مشركون عليهم الإنتهاء فوراً من عبادة أصنامهم الزائفة، سواء كانت ممتلكاتهم، أموالهم أو أعمالهم. لا شيء مما يملكون يخصهم في الواقع. فحتى خبزهم اليومي لا يتوقف عليهم، و ثروتهم الكبيرة قد أو قد لا تنتقل إلى أولادهم ليتمتعوا بها، وهكذا دواليك. فالله تعالى فقط هو الذي بيده كل شيء وهو الذي يعطي الناس ما يشاء. بإدراكهم هذه الأمور، على الناس أن لا يصيبهم الفخر بما يملكون، بل عليهم التفكير بأسلوب حياتهم ونظرتهم العقائدية بتأني والقيام بالتغييرات اللازمة. عليهم أن يدركوا جيداً أن كل ما يملكون هو ملك لله وحده، أنه تعالى أمدهم بما يملكون ليختبرهم به، وأنهم يجب أن يستخدموا هذه الأشياء بطريقة ترضيه. بنية تحرير أنفسهم من كل مشاعر الفخر والتملك، عليهم تحطيم هذه الآلهة بالكامل. فصدقهم في هذا الأمر، لا يثبت إلا من خلال طريقة معيشتهم اللاحقة وتصميمهم. فقد يتوجب عليهم إنفاق كل ما يملكون، عندما يلزم الأمر، في سبيل الله، من دون أي تردد أو قلق من المستقبل أو كيف سيتمكنوا من الحصول على وجبتهم التالية. بتوكلهم الكامل على الله، عليهم التذكر دائماً أنه هو وحده تعالى الذي يرزقهم وأن يدركوا أنهم عاجزين تماماً أمامه.

كما سبق ورأينا، فالفرق بين التوحيد والإشراك هو عموماً يتعلق بالنية وبالمنظور. لقد حطم رسولنا الكريم (ص) الأصنام داخل الكعبة، وأحرق موسى (ع) العجل ورمى برماده في البحر. هذه الضربات وُجِهت إلى تجليات مادية للوثنية، والتصرف ذاته يجب أن يطبق على الوثنية الرمزية (أو الخفية). فالمهم هو تحطيم مبدأ الوثنية والشرك، وذلك لا يتم إلا بتغيير الشخص لنيته ولمنظوره. ولذلك، فإن التغيير العظيم الذي يختبره المؤمنون الجدد مكانه في قلوبهم. فبينما قد يبقون على بعض الأمور من حياتهم السابقة، إلا أنهم سيكون لديهم منظور وفهم مختلفين كلياً. بإختصار، فإن عاداتهم الإجتماعية، معتقدات أسلافهم وأجدادهم، رغباتهم الخاصة وطموحاتهم، وأفكار بعض الناس، كل هذه الأمور ستخلوا من المعنى بالنسبة لهم، لأنهم سينظمون حياتهم الجديدة وفق القرآن الكريم لينالوا رضوان الله تعالى. بتوقفهم عن إرضاء آلهتهم الخاصة والوهمية، سيستسلمون لله خالقهم، كما قال النبي يوسف (ع)، عندما سأل: {...أَزْبَابٌ مُتَّفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} (يوسف: ٣٩)

ثم قال يوسف (ع) هذه الكلمات التي تنطبق على كل المشركين في كل وقت :



{مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} (يوسف: ٤٠)